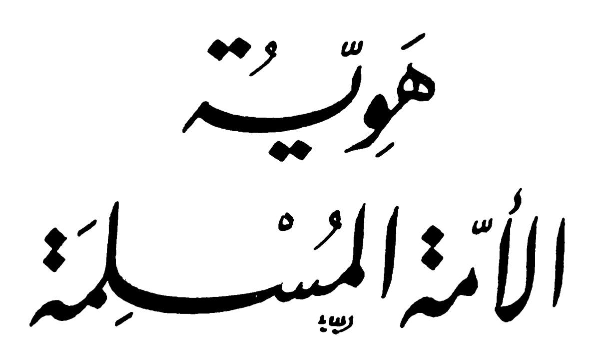
هوية الأمة المسلمة

تأليف

محمود شاكر

المكتب الاسلامي



محمود شاكر

المكتب الاسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م



بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - برقيا : اسلاميا - تلكس : ٤٠٥٠١ - هاتف : ٤٥٠٦٣٨
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥ - فاكس : ٧٤٨٥٧٤

المقـدّمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسـلام على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبدالله عليـه أفضل الصلاة والسلام ، وعلى آله وصحبه أجمعين *أما بعـــد* :

فإن لكل إنســانٍ اليوم في كل مصرٍ ، ومن كل جنـسٍ هويةً يُعرف بها ، يحملهـا أينما سار حتـى في بلده ، تُثبـت شخصيته ، يُسأل عنها إن وقع له حـادث حتى لا يُتهم غيره ، ويُفتش عنها إذا تعرّض لمكـروهٍ كي يُعـرف ، ويُبلّغ إلى أهلـه وموطنـه . وإذا ضاعت هذه البطـاقة من صاحبها فكأنما ضـاع حقّه ، أو ظُلم غيره ، وربما كـان هو بين الضـائعين إن لم يكن يحمـل ما يُثبـت شخصيته .

وكل مسافرٍ لابدّ له مـن جواز سفرٍ يثبت هويته ، وانتماءه ، ويكون هذا الجواز مُعطىً له من دولتـه ، ومُعترفاً به عالمياً ، وإذا فُقد هـذا الجواز فإن صـاحبه بقي في مكـانه لا يستطيـع السفر

حتى يرجع إلى سفارة بلده في المكان الذي هو فيه ، وتتحقّق من هويته ، وتُعطيه جواز سفرٍ بدلاً عن ضائع . وهكذا فإن لكل إنسان هويةً تُثبت شخصيته في داخل بلده ، وفي خارجه ، بل إن أصحاب الطيور كثيراً ما يصبغون طيورهم بلونٍ معينٍ ليعرفونها من بين الطيور التي تختلط معها . وكذا يفعل الرعاة بأغنامهم وإبلهم كي تتميّز عن أغنام وإبل غيرهم ، فلا يُساق بعضها مع قطعان الآخرين ، أو يختلف أصحابها بعضهم مع بعضٍ على فحلٍ أو ناقة .

ولكل أمة هوية تميّزها عن غيرها من الأمم ، وليست هذه الهوية بالأجسام والألوان إذ تضمّ الأمة الواحدة مجموعاتٍ من البشر ذات أجسام متباينةٍ في صفاتها ومختلفةٍ في ألوانها ، كما أن الهوية ليست باللغة فقد تشمل الأمة الواحدة عدة أجناسٍ لكل جنسٍ لغته الخاصة . كما لم يكن التاريخ ليُوحّد بين الناس فيجعل منهم أمةً واحدةً ، وكذلك لم تكن المهنة لتنشىء أمةً ، ولم يكن النظام ليؤلّف أمةً ، ولكن العقيدة وحدها هي التي تُؤلّف بين مجموعاتٍ من البشر فتجعل منهم أمةً واحدةً .

فالأمة مجموعة من البشر تحمل عقيدةً واحدةً ، وتبقى هذه الأمة على مدار التاريخ مادامت تعتقد تلك العقيدة ، ويتمسّك أبناؤها بها. ومن هذه العقيدة تنشأ العلامات المميزة للأمة ، ومنها اللغة، والتاريخ ، والعادات ، والمفاهيم ، والأخلاق ، وهي التي تُعطي للأمة هويتها . وإذا فُقدت هذه الهوية ضاعت الأمة ، وذابت شخصيتها .

وتتصارع الأمم بعضها مع بعضٍ ، وتتخذ كل أمةٍ وسائلها كافةً لتحقيق الانتصار على خصمها ، وإذا كان السلاح أحد هذه الوسائل إلا أنه أكثرها خطراً ، وليس لأنه يُضيع الكثير من المال بالنفقات ولكن لأنه يُسبّب تهديم المنشآت الحيوية من معامل وسدودٍ ، ومشروعاتٍ وطرقٍ ، ويُتلف المزروعات ، ويُهلك الحيوانات ، وفوق كل هذا يُسبّب قتل الكثير من أبناء الأمة ، وهم عماد حياتها ، ووسيلة مجدها ، وأساس بناء حضارتها. وبعد تحقيق النصر ، والحصول على الفوز لا يلبث الخصم أن ينتفض ، وتدبّ فيه الحياة من جديدٍ ، ويعود للدخول في الصراع مرةً ثانيةً مادامت الحياة تنبض فيه ، فالروح

المعنوية يمكن أن تنبعث تارةً أخرى ... وهكذا يعود القتال ، ويرجع الصراع بين الخصمين ، لهذا عمل المخططون وسائل كثيرةً لإضعاف الروح المعنوية لدى الخصم كي يخفّفوا من شدة أوار القتال ، ويُقلّلوا ما استطاعوا من خسائر الحروب ، ومن ذلك محاولة إشغال الخصوم بعضهم ببعضٍ بإيجاد الفرقة فيهم ، وإيقاع الخلاف بينهم ، ومنها نشر الفساد للالتفات إلى الشهوات ، وترك الاستعداد للمواجهة ، ومنها إذلال الخصم بالعمل على إفقاره ، وإبعاده عن العلم ، والضغط عليه كي يذلّ ، ومتى شعر بالذلّ صعب عليه الوقوف في وجه الخصم ، ومواجهته بل وحمل السلاح و..... وهذا أمر شائع بين المخلوقات حتى أن بعض الحشرات لتضرب فريستها في موضعٍ يجعلها في حالة شللٍ لا تستطيع معها المقاومة ، وبعض تلك الحشرات تُخدّر فريستها بلدغةٍ في مكانٍ محدّدٍ . وكذا الحيوانات أيضاً فإن الذئاب تغرز أنيابها في رقاب الخراف ، وتجبرها على السير معها إلى مكان بعيدٍ عن رقابة أصحاب الخراف حيث تفترسها هناك ، وتكون الخراف في حالةٍ من الإعياء بالخوف ،

والألم من الجراح ، وغرز الأنياب فتستسلم ولا تُبدي حراكاً ، ولا تبذل الذئاب كبير عناءٍ للحصول على وجبةٍ شهيةٍ لاتزال دافئة الدم والجسم ، كافيةٍ للشبع بل وتزيد على المطلوب . وهذا تصرّف مخلوقات الله .

ويحصل المسلمون على مبتغاهم من الآخرين الذين يقفون أمامهم بالدعوة ، فالذين يقبلون الإسلام من الخصوم يصبحون جزءاً من الأمة الإسلامية ، وأفراداً من أبنائها ، وهم إلى جانبها في صراعها مع غيرها ، وبذا يتفكك خصم المسلمين ، ويضعف عن المقاومة ، ويدخل المسلمون بما يحملونه من هدايةٍ وخير للناس أجمعين ، إلى قلب الخصوم. ولم يدخل المسلمون معركةً مع أعدائهم إلا بعد أن يَعرضوا عليهم حلاً من ثلاثة تجنّباً لسفك الدماء ، وهذه الحلول هي :

١ ـ الدخول بالإسلام ، وعندها ينقلب الخصوم إلى إخوةٍ بكل ما تحمل الكلمة من معنى المساواة التام بالحقوق والواجبات ، والجهاد و.....

٢ ـ السماح للدعوة بالانطلاق دون وضع أي عوائق أمامها، ودفع الجزيـة اعترافاً بإشراف المسلمين عليهم هـذا فيما إذا كان الخصـوم ـ سـابقاً ـ من أهـل الكتاب ـ يهود أو نصارى أو مـا يلحق بهم من مجوس ـ أما إن كانوا من غير هذه الفئات الثلاث فلابدّ لهم من أن يختاروا الإسلام أو واحدةً من تلك الفئات ، ولا إكراه لأي فردٍ في أن يختـار الدين الذيـن يريد من هـذه الفئات الأربع : الإسلام ، النصرانية ، اليهوديـة ، المجوسية ، ولا يسمح لغير هذه الفئـات بالعيش في ديـار الإسلام فالسيـف أو الفرار حتى يصـل المسلمون إلى ديـارهم الجديـدة تارةً أخـرى ﴿ **فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعـدوا لهم كل مرصدٍ ، فـإن تابوا وأقامـوا الصلاة وآتوا الزكاة فخلّوا سبيلهم ، إن الله غفور رحيم** ﴾[1].

٣ ـ إن لم يقبل الخصـم أحد الحلّين السـابقين فـلابدّ مـن استعمال السيـف ، والجهاد في سبيـل الله كـي يُؤدّي المسلمـون

---

(١) سورة التوبة الآية : ٥.

مهمتهم الملقاة على عاتقهم ، وهي الدعوة إلى الله ، ونشر الإسلام ، وهم مسؤولون عن ذلك أمام الله يوم الحساب . وقد أدّى المسلمون الأوائل الأمانة ، وأخلصوا لله ، فنصرهم على عدوّهم ، وانتشر الإسلام ، كما هو معلوم في ربوع الأرض .

وهكذا عمل المسلمون على تخفيف إراقة الدماء قدر جهدهم ، فهم مُكلّفون بمهمةٍ ولابدّ من تأديتها ، فهناك أماكن لم يُشهر فيها سيف إذ قبل أهلها ما جاءهم من خيرٍ ، وهناك جبهات عمل فيها السيف مداه وذلك لتعنّت حكامها ، وحرصهم على مصالحهم ، فحالوا بين شعوبهم والخير ، فتارةً كانوا يفترون على أمتهم الكذب عن الإسلام ، وأخرى يُغالطون لترفض رعاياهم ما سيق إليها من خيري الدنيا والآخرة .

فكانت الأمم تُخفّف عن كاهلها عناء القتال ، والمواجهة ، والخسارة بإضعاف خصمها بما تملك من وسائل كي تُخدّره بالفرقة ، والسعي وراء الشهوة ، وبالذلّ جهلاً ، وفقراً ، ومرضاً .

توطــئة

لا أعتقد أن أمــةً وُجّهت إليها السهام كما وجّهــت إلى الأمة الإســلامية ، ولا أمــة حقــد عليهــا الأعداء كما حُقــد على الأمــة الإســلاميــة ، ومــا تلــك السهام وتلــك الأحقــاد إلا غيظــاً مــن الانتصارات الأولى التي حقّقها المسلمون على خصومهم ومنهم النصارى الــذين تعنّت حكامهــم يومذاك فأبــوا الحق ، ورفضوا الخير ، خــوفاً مــن ذهاب دنيــاهم عنهــم إذ كانــوا يمرحــون في حرمات الــرعية ، ويرعون في أعراضها ، ويستبيحــون أملاكها ، وحقوقها ، وقــادوا شعوبهم إلى حروبٍ لم تنته بقــرون ، وشحنت الكنيسة نفوس أتباعها بأحقادٍ وأحقادٍ ، ظهرت في تلك الحروب الصليبية التي شنّها نصــارى أوربا على ديار المسلمين . وزادت تلك الأحقاد ونمت في النفــوس الشريرة لصمود المسلمين أمام مستعمريهم صموداً لم يكــن يخطر ببال الحاقديــن مما ألهب غيظ الغزاة فهبّوا بوحشيةٍ ينتقمون من المدافعين عن عقيدتهم ، الحماة

لأعراضهم ، الذائدين عن ديارهم .

وإذا كان اليهود قد لقوا اضطهاداً من غيرهم من الأمم والشعوب فما ذاك من باب الحقد عليهم وإنما من باب الكراهية لهم للأعمال القذرة التي يقومون بها هم وفتياتهم ، ويقولون ليس علينا في الأميين من سبيل حيث يستحلّون دماء غيرهم ، ويعجنون بها فطيراً لهم ، يتناولونه يوم عيدهم ، كما يستحلّون أموال غيرهم فيأخذونه بالباطل ، وعن طريق بناتهم اللاتي يبتن في أحضان أصحاب الأموال لسحبها منهم بإرواء غرائزهم ، وتحقيق شهواتهم ، والنيل منهن ما يريدون ، وللمتاجرة بالخمور والأعراض فقد احتقرت الأمم والشعوب اليهود ، واضطهدتهم ، وأنزلت بهم الضربات حيث لايجرون إلا وراء المال فهو مُولّهون برنين الدنانير ، عاشقين جمعها ، ولاشوكة لهم ولا ذبّاحة ، جبناء أثناء النزال ، ضعفاء وقت القتال ، ولولا أن احتضنتهم بعض الدول الكبرى ، وساقتهم ليكونوا شوكةً أمام المسلمين ، وقذىً في أعينهم ، وشجىً في حلوقهم لما كان لهم شأن في التاريخ أبداً . فاضطهاد اليهود نتيجة احتقارهم

وازدرائهـم ، وكراهيتهـم بسبب أعمالهم القـذرة هو غير محاربـة المسلمين نتيجة الحقد والغيـظ عليهم بسبب قوتهم وصمـودهم واستعلائهم بعقيدتهم ، واعتزازهم بمكـانتهم وما هم عليه من الحق ، وما عليـه غيرهم مـن الباطـل ، وفساد الـرأي ، وبطلان العقيدة .

المحاولة الأولى لتحطيم المسلمين :

شاءت إرادة الله أن يضعف المسلمون لتهاونهم بأمر دينهم، وسعيهم وراء دنياهم ، ولعدم وجود من يقف أمامهم فيستعدّوا للمنازلة ، وليأخذوا حذرهم من المفاجأة ، كما قضت حكمة الله أن تتقـوى دول أوربا النصرانيـة ليتنبّه المسلمـون من غفلتهـم ، وليصحـوا من رقـدتهم فيقـف في وجـه الأعداء مـن بـه خير ، ويسير معهم من لا خير فيه .

أخـذ أعداء المسلمين بـالأسباب ، وانطلقـوا وراء دنياهـم يُقاتلـون المسلمين يدفعهم الحقـد ، ويُثيرهم الغيـظ ويُحرّضهم سدنـة الكنيسة ورجال المصـالح والأهـواء وتمكّنوا بانطـلاقتهم

هـذه مـن السيطرة على هـوامـش ديـار الإسلام ومنهـا أخـذوا بالامتداد نحـو القلب ، وبعد عدة قرونٍ متواصلـةٍ من العمل ، والأخذ بالأسباب ، ومعاول الهدم من الداخل تضرب استطاعوا تحقيق مارسموه وما خططوا لـه . وحاولوا طيلة هذه المدة تحطيم المسلمين نفسياً كـي ينهاروا وذلـك عن طـريق نشر المفـاسد ، والإذلال بـالفقـر ، والمرض ، والجهــل ، والاضطهـاد ، وإلحاق الأذى إضـافة إلى عمـل عبـدة الصلبان في الـداخـل مع فـرق الضلال ، وملل الكفر ، ومن نهج منهج المستعمرين وسار على خطتهم ، واتبع هواهم ،وقلّدهم في أسلوب حياتهم .

وإذا كان المستعمـرون النصارى قد نجحوا بكسـب أعدادٍ من المسلمين إليهـم أعوانـاً لهم يتبعون شهـواتهم، وقد اختـاروا طريقة الأعداء نهجاً لحياتهم ، وكذلك فقد كسبوا الفرق الضالة إلى جـانبهم إلا أنهم قـد فشلـوا في تحطيـم النفسية الإسـلاميـة وإماتة روح الإيمان فيهـا . إذ بقيت الروح المعنويـة لدى معظم المسلمين مـرتفعـةً بـل وينظـرون نظـرة استعـلاء أمـام الغـزاة المستعمرين، فالمسلمون هم المؤمنـون فهم الأعلون ، وإن كانوا

مقهورين ، والدخـلاء هم الأدنون ما داموا كافـرين ، وإن كانوا هـم الأقوى سـلاحاً ، ولهم الغلبـة في هذه المرحلـة ، وقد لقـي المستعمرون مـن المسلمين مقاومةً عنيفـةً ، وكانـت بين الطرفين معارك كادت في كثيرٍ من الأحيان أن تُلقي الدخلاء خارج ديار الإسـلام لولا قـوة السلاح ، ولـولا أعوان المستعمـرين ، وكـان المستعمرون عندما ينتصرون يستعملون أقسى أنواع الوحشية في قمع المقاومة وضدّ الذيـن وقعوا في قبضتهم من المسلمين حقداً ومن أجل إرهاب السكان ، ومنعهم من القيام أو الاشتراك بأي حركة مقاومةٍ جـديدةٍ ، ولإذلالهم غير أن ذلك لم يفدهم كثيراً إذ بقيت فكرة الاستعلاء بالإيمان قائمةً لدى المسلمين الملتزمين بل إن غير الملتـزمين وحتى المنحـرفين الذيـن أخذوا ينهجـون نهج المستعمـريـن النصـارى ظلّـوا يعتـزّون بـانتمائهـم لـلإسـلام ، ويفخرون أنهم من أبنـائه رغم أنهم قطعوا شوطـاً كبيراً بالابتعاد عنه . وهـذا ما كان يـزعج المستعمريـن الدخلاء ، ويتمنّـون لو تخلّى المنحرفون عـن فخرهم بالانتماء إلى دينهـم ، ثم التخلّي عنه نهائيـاً ، وهذا مـا يفسح المجـال للقضاء على الإسـلام ، غير أن

هذا لم يحدث أبداً إذ أن عقيدة الإسلام راسخة في نفوسهم تمام الرسوخ .

لم يعلم المستعمرون النصارى أن استعلاء المسلمين بإيمانهم هو جزء من عقيدتهم ، وإنما ظنّوا أن هذا هو بسبب عدم إخضاع العرب كافةً ، الذين هم محطّ أنظار المسلمين جميعاً ، وبسبب وجود خلافةٍ تمثّل المسلمين ، وتنطق باسمهم ، وتعمل على جمعهم ، لذا وجّه المستعمرون النصارى جلّ اهتمامهم نحو دولة الخلافة ، ونحو بلاد العرب ، فضعفت الخلافة كثيراً ، وقد نصّبوا على قاعدتها ، وعلى بعض الأجزاء العربية رجالاً ليسوا على عقيدة أهلها ، وإنما يتظاهرون أنهم عليها ، بل ويظهرون التشدّد في حملها والدعوة إليها ، وإن لم يُمارسوا ما هو مطلوب منهم إلا لإخفاء واقعهم ، وتزلّفاً لرعيتهم لتسير وراءهم خديعةً لها ، وتهديماً بطيئاً يبدو واضحاً بعد زمنٍ ، في الوقت الذي يستعدّ فيه المخططون للإجهاز على المسلمين ــ حسب زعمهم ــ .

ضاق المستعمرون النصارى ببطء تنفيذ مخططهم ، فالمسلمون يستعلون بإيمانهم ، ومن تحلّل منهم أو انحرف ، وسار على نهج الفرنجة لايزال يفخر بانتمائه للإسلام وربما هناك من التزم بالإسلام من أبنائه وأهله . والإرساليات التنصيرية رغم إمكاناتها الضخمة ، وجهودها المضنية ، وإغراءاتها الكبيرة ، وإفسادها المستمر لم تُقدّم عملاً يذكر في هذا المجال ، ومن أفسدته من المسلمين بالجنس ، أو الخمر ، أو المال لايختلف أبداً عمن انحرف ، ومال شهوةً ، أو مصلحةً ، وقد يثوب إلى رشده بعد مدةٍ ويرجع إلى دينه ، أما تغيير العقيدة من الأساس فهذا مالم يقع ، وإن حدث فأمر شاذ لا يُنظر إليه ، لذا وجد المستعمرون النصارى أنه من الضرورة القيام بعملٍ أكثر خطورةً في ديار الإسلام ، وهو تغيير الهوية الإسلامية لإضاعة الشخصية تماماً .

حرّك المستعمرون النصارى ـ وقد أصبحوا أصحاب الكلمة في الأمصار الإسلامية ـ أعوانهم على اختلافهم، فأُلغيت الخلافة التي كانت رمزاً لاجتماع المسلمين رغم أنه قد بقيت

صورةً ، وأخـذ الرعـاة الأعوان الـذين يُظهـرون الإسلام بجـرأة وصراحةٍ لا يُبـالون بـأوامر الله يُهدّمون مـن الداخـل بتصرفاتهم ليفقد الإسـلام مضمونـه ـ حسب زعمهـم ـ وخـاصةً أنهم على رأس أخطر الثغور ، وأشرفها مكانةً . ولم يكن بقية الرعاة بأولئك المؤمنون حقـاً ، بل ولا بالـرجال الأقويـاء الذين يُعتمـد عليهم وإنما ضعفاء على أحسن ظـنٍّ ، إن لم نقل إنهم من الذيـن مالوا إلى نهج الفـرنجـة ، وسـاروا مقلّـديـن لهم . وأخــذت الهويـة الإسـلاميـة تفقـد مكـانتها تـدريجيـاً ، كما أخـذت الشخصيـة الإسلامية تضيع.

الفصل الأوّل
هويّة الأمّة المسلمة

قلنا إذا فُقدت الهوية صعُب إثبات شخصية الفرد لذا يحرص المرء على الاحتفاظ بهويته ليبقى محتفظاً بشخصيته ، وكذا تضيع الأمة إذا فقدت هويتها ، ومن هنا فقد حرص أعداء الإسلام على أن تفقد الأمة الإسلامية هويتها . فما هي هذه الهوية ؟ إن عناصر هوية الأمة هي عناصر بطاقة الفرد الشخصية ذاتها من اسم ولقب ، وتاريخ الميلاد ، والسكن ، والعلامات الفارقة (المميزة) التي تميزها الصورة وتوضحها .

الاسم واللقب :

الأمة الإسلامية ، وقد يُطلق عليها أمة محمد ، ﷺ ، وينضوي تحت هذا الاسم كل من آمن بالله رباً ، وبمحمد بن عبدالله نبياً ورسولاً ، وقبل بالإسلام ديناً ، واهتدى بهديه ، وسار

وفق شرعه . ويلحق بهذا من أظهر الإيمان ، وشهد شهادة الحق، واعترف بتقصيره إن أهمل ، وأبـدى النية على اتباع المنهج الإسلامي ، وتطبيقه على نفسه ، والعمل بمقتضاه .

ويحرم من التبعية لهذه الأمة كل من أظهر أحد نواقض الإيمان ، أو خان الأمة ، كأن يسير أو يتعاون مع أعدائها ضدها، أو يدلّهم على ثغراتها أو .....

وقد عمل المستعمرون النصارى عندما تمكّنوا من ديار الإسلام على إلغاء كل ما يدلّ على إسلام المصر ، أو الإقليم ، أو السكان وذلك بإزالة الانتماء أو ما يدلّ عليه . لقد كانت الخلافة هي الرمز الإسلامي ، والاسم يدلّ على ذلك حيث أن كلمة « الخلافة » هي مصطلح إسلامي ، وليس له ما يُقابله في عقيدةٍ أخرى . ونشأت مكان دولة الخلافة ، وعلى باقي أرض ديار الإسلام دول تحمل اسم أقاليم ، وأخرى تحمل اسم الأسر المؤسسة للدولة ، وصيغ لكل دولةٍ نشيد خاص بها أُطلق عليه اسم « النشيد الوطني » إمعاناً في التجزئة ، وتأكيداً على التفرقة،

وترسيخاً للكيـانات المستقلة ، والتي لاتتجاوز مسـاحة بعضها رقعـةً صغيرةً مـن الأرض ، لا تستطيـع أن تقـوم بنفسهـا ، ولا يمكنها أن تُدافـع عن حماها ، ولا أن تعيش بمواردهـا ، وهذا ما يجعلهـا مضطرةً لأن تعيـش في كنف غيرهـا ، وحمايـة سواهـا ، وغالباً ما تكون تبعاً لإحدى الدول النصرانية الكبرى .

وأوجـد المستعمـرون النصـارى روابـط بين أبنـاء الإقليـم الواحد غير رابطة الإسـلام ، حيث طرحوا فكرة الوطنيـة كبديل عن الإسلام وذلك في الأمصار التي توجد فيها أقليات ، وفئات غير إسلامية في سبيل مسـاواة غير المسلمين بالمسلمين ، وعدم اعتبار البلاد دياراً إسلاميـةً ، ولإمكانية تسلّل غير المسلمين إلى الجيش. وحتى لاتكون هناك روابـط مع الأمصار المجاورة تحت فكرة الرابطة الإسلامية . وفي المنـاطق التي وجدت فيها شعوب مسلمة متجاورة طرحت فكرة العصبية القومية ، وتشدّد أتباعها بحملها حتى لايمكن أن يكون هنـاك لقاء بين المسلمين الذين يجاور بعضهم بعضاً، بل أوجد المستعمرون النصارى مشكلات خلافٍ على الحدود والمناطق التي يُتاخم بعضها بعضاً كي يبقى

العداء مستحكماً ، ويستمـر الصراع قائماً فـلا يمكن أن تجتمـع للمسلمين كلمة ، وهكذا تفككت الأواصر بين المسلمين نتيجة الوطنيـات الضيقة ، والعصبيات القـومية ، وحملت الـدول التي نشأت أسماء عصبيات قومية مثل العـربية ، والتركية ، والايرانية و... ثم مال الأعداء إلى داخل الإقليـم الواحد فشتّتوا أهله بين أتباع لـلأنظمة الوضعيـة المخالفـة للإسلام ، فتـوزّع الناس بين أتبـــاعٍ لهذا النظام وأعوانٍ لذاك ، وبين هـذا الحزب المؤيّد لهذا المبدأ وذاك الحزب المناصر لذاك الشعـار و..... وهكذا تاه كثير من أبناء الأمة ، وتخدّرت أعصـابهم ، وصُمّت آذانهم عن سماع الحق ، وعميت عيونهم عن رؤية الخط الذي يُراد للأمة أن تسير فيـه .

تاريخ الولادة :

ولدت الأمـة الإسلامية مع بعثـة رسولها محمد بـن عبدالله ، عليـه الصلاة والسـلام ، وظهرت مـع تـأسيس أول دولـةٍ لها في المدينة المنورة إثر وصول رسول الله ، ﷺ ، إليهـا بعد هجرته من مكة المكرمة إليها حيث غـدا لها دار عُرفت بدار الإسلام، إذ بدأ

تطبيق شرع الله فيها ، ومـا عداها فكان دار كفـر حيث لا يُطبّق شرع الله ، وإنما يسير النـاس حسب أهـوائهـم ، ووفق أعـرافٍ تعارفوا عليهـا ، أو دوّنوها كنظامٍ لهم وضعوه حسب مصالحهم وتبعاً لمقتضى منـافعهم التي ينظرون إليهـا في المستقبل . والأمة مجموعـة من النـاس يتبعون عقيدةً واحـدةً على مدى التـاريخ ، ومن هنا فـالأمة قائمة من تـاريخ نشوئها مـع بعثة رسـول الله ، ﷺ ، وباقية حتى يرث الله الأرض ومن عليهـا ، قد يزيد عددها في مرحلةٍ من التاريخ نتيجة نشاط الدعوة ، وقوة الأمة ، والجهاد كما حدث أيام الفتوحات وقد ينقص بسبب تسلّط غيرها عليها فينحرف بعض أتباعها بـالاغراء والسير وراء الشهوات . والأمة الإسلامية قـائمة منذ أن خلق الله البشر ، وأرسـل إليهم الأنبياء والرسل ، فكل من تبعهم وسـار على نهجهم يعدّ من هذه الأمة التي تـدعو إلى عبادة الله وحـده ، وتُنير مشعل الحق ليسير على نوره ويهتدي به أهل التوحيـد كلهم . ويُعدّد الله سبحانه وتعالى بعض الأنبيـاء والرسل من لـدن نوح عليه السلام حتـى عيسى ابـن مـريـم ثـم يُقـرّر إن هذه أمتكـم أمـة واحـدة وأنـا ربكـم

فاعبدون.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ
ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ
مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا
بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ
أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾
قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟
أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ
﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾
فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ
﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾
قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ

عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ٦١ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ
هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ٦٢ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ
هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ٦٣ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ
أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٦٤ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ
رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ٦٥ قَالَ
أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا
يَضُرُّكُمۡ ٦٦ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا
تَعۡقِلُونَ ٦٧ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ
فَٰعِلِينَ ٦٨ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩
وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ٧٠ وَنَجَّيۡنَٰهُ
وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ٧١ وَوَهَبۡنَا
لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ٧٢
وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ
ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا
عَٰبِدِينَ ٧٣ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ

ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ
فَٰسِقِينَ ٧٤ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
٧٥ وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ
وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٦ وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ
ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ
أَجۡمَعِينَ ٧٧ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ
نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨
فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا
مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩
وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ
فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ٨٠ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ
إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ٨١
وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا
دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ٨٢ ۞ وَأَيُّوبَ إِذۡ
نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣

فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ
وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾
وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ
﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ
فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى
كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ
مِنَ ٱلْغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ
إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ
﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا
لَهُۥ زَوْجَهُۥٓۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ
وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًاۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾
وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا
وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ
أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾

غير أن أعداء الإسلام عندما تمكّنوا من بسط سيطرتهم على الأمصار الإسلامية قد عملوا على تغيير هذا المفهوم حيث قام أعوان المستعمرين من أصحاب العصبيات القومية يرفعون راية المراحل الجاهلية التي سبقت الإسلام في تاريخ أقوامهم ، ويعدّونها رموزاً لهم ، ويفخرون بآثار تلك المرحلة من أبنيةٍ ومعابد ، وقبور (أهرامات). كما وضعوا أياماً أسموها أعياداً ، وأياماً وطنيةً بمناسبة يوم قيام الدولة دون النظر إلى أساس الارتباط بالماضي الإسلامي ، والعهد الزاهر المنصرم ، وهذا نوع من الجاهليات السائدة .

الموطن :

تُعدّ ديار الإسلام (الأرض التي يُطبّق فيها شرع الله) وطناً لأي مسلم أينما كان يعيش ، وفي أي بقعةٍ كان ينزل ، يدخل إليها دون إذن دخول (تأشيرة) ، ويتنقل فيها كفردٍ من قاطنيها إذ يُعدّ من أبنائها ويحقّ له التملك ، والمتاجرة ، ولا يُرحّل عنها إلا إذا ظهر منه ما يستدعي ذلك . هكذا كان خلال مرحلة التاريخ الإسلامي ، وكثيراً ما نقرأ عن الرحالة المسلمين

وانتقالهم من مصرٍ إلى آخر دون إذن دخول ، وأنهم كانوا يُتاجرون ، بل ويتزوّجون ، وإذا طالت مدة إقامتهم قد يُعهد إلى الواحد منهم بمنصبٍ يتسلّمه كالقضاء وغيره إن كان من أهله، وممن يُنظر إليه نظرة العالم ، ويُشهد له بالمعرفة ، حتى ذاع صيته، فجنسية المسلم هي عقيدته . ولا شك أن الحذر ، وأخذ الحيطة ، والانتباه إلى التجار القادمين من المسلمين من خارج ديار الإسلام أمر مطلوب دون أن يخلّ ذلك باعتبار ديار الإسلام موطناً لكل مسلمٍ أينما كان يُقيم .

ولما تمكّن المستعمرون النصارى من السيطرة على الأمصار الإسلامية ، وبسطوا نفوذهم عليها تماماً وشدّدوا قبضتهم عليها، وأصبحوا أصحاب الكلمة فيها ، والسادة المطاعين ، وضعوا الحدود بين هذه الكيانات الجديدة التي أسموها دولاً ، وأقاموا الحواجز ، ومنعوا دخول أي فردٍ مسلمٍ إلا إذا كانوا يوافقون عليه ، ووضعوا هذه التعليمات لمن خلفهم بالسلطة، أو من نصّبوه مكانهم ، وغدا الكيان الواحد خاصاً بقاطنيه لايحق لغيرهم من المسلمين بالإقامة فيه أو السكن إلا لمدةٍ محدودةٍ ،

كما لا يحق لهم التملّك ، بل الدخول . وهذا ما زاد من فرقة المسلمين ، ونظرة بعضهم إلى بعضٍ نظرة ازدراءٍ وخاصةً إذا كان سكان إقليم أكثر دخلاً من سكان بقية الأقاليم ، أو أكثر تقدّماً بالعلوم التجريبية .

الفصلُ الثاني
العَلامات المميّزة

هناك علامات خاصة يحكم بها الإنسان على أي فردٍ أنه من الأمة المسلمة إن لم يكن من العرب ، وأهم هذه العلامات المميزة هي :

أ ـ اللغة العربية : بُعث رسول الله ، ﷺ ، من بين العرب ، هكذا اختاره الله ، فكان لابدّ من أن يكون الكتاب الذي سينزل عليه ، وسيحمله إلى البشرية جمعاء ، بصفته خاتم الرسل ، وبُعث للناس كافةً لابدّ أن يكون هذا الكتاب بلسانه ، لسان قومه العرب الذي سيُواجههم به ، وهم أول من يُواجه به ، وأول من يُدعون إلى الأخذ به وتطبيقه .

وكتاب الله ، القرآن الكريم ، كتاب توجيهٍ وهدايةٍ ، ومنهجٍ للحياة فلابدّ للمسلمين من الأخذ به ، والعمل على تطبيقه ،

والسير على منهجه ، وهذا لا يتأتـى إلا بفهمه ، ولا يكون فهمه صحيحاً إلا بمعرفة اللغة العربية ، ودراستها ، والتعمّق بها .

والقرآن الكـريم كتاب عبـادة لاتصحّ الصلاة إلا بقـراءته وباللغة التي نزل بها ، كما أن تلاوته عبادة يتعبّد بها المسلم تقرباً إلى الله ، وهذا لا يتـأتّى إلا بمعـرفة اللغـة العربيـة ، ودراستها ، وتعلّمها .

ولما كان رسول الله ، ﷺ ، من بين العرب لذا فحديثه باللغة العربية ، بـل لا يعرف سواها ، والحديث النبوي تـوضيح بعض ما ورد في كتاب الله ، وتفسير له . ورسول الله ، ﷺ ، قدوة لنا في أعماله وسلوكه ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليـوم الآخـر وذكر الله كثيراً** ﴾[1]. وطاعته من طاعة الله ﴿ **من يطـع الرسـول فقد أطـاع الله ، ومن تـولّى فما أرسلناك عليهم حفيظاً** ﴾[2] و ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم**

(١) سورة الاحزاب الآية ٢١ .

(٢) سورة النساء الآية ٨٠.

الله ويغفر لكم ذنوبكم، والله غفور رحيم﴾[1] . والحديث النبوي هو المصدر الثاني للتشريع بعد كتاب الله ، لذا لا بدّ من معرفته ودراسته، ولا يتأتى ذلك إلا بتعلّم العربية ودراستها .

ولابدّ من أن يكون المسلم داعيةً ، يُبلّغ ما يعرف (بلّغوا عني ولو آية ، وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)[2] ويتحدّث بما يُجيد ، وهو مسؤول عن ذلك أمام الله يوم القيامة ، ولا يستطيع المسلم أن يُؤدّي هذه الأمانة إلا إذا كان يعرف اللغة العربية .

قد يقول قائل : إن هذا من واجب الخاصة ، واجب الدعاة وأهل العلم ، والجواب على ذلك أمر يسير ، إنه لايوجد في الإسلام خاصة وعامة ، ولا يوجد رجال دين يختصون بالدعوة ، وغيرهم لا مسؤولية عليهم ، ولا علاقة له بذلك ، فالمسلمون جميعاً مسؤولون وإن كان كلٌ مسؤولاً حسب إمكاناته وعلمه .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٣١ .

(٢) أخرجه البخاري ٦/ ٣٦١ في الأنبياء ، ورواه عبدالله بن عمر ، رضي الله عنهما .

ولايصحّ أن نقف حائلاً دون علـم الإنسان للشريعة لعدم معـرفته العـربيـة . غير أن العصبية القـوميـة قـد أعمت عيـون كثيريـن عن هـذه الحقائق ، وأصمـت آذانهم عن سماع كلمـة الحق . وربما حلّت نكبات قاسية بشعـوبٍ فصرفت أهلها نحو العصبية كعاطفةٍ في بداية الأمر ، ثم تطورّت إلى عصبيةٍ جاهليةٍ نتنةٍ حتى سقط فيها بعض من يتـوقّع المرء منهم أن يكونوا أكثر عقلاً ، وأكثر وعياً لمعرفتهم اللغـة العربية وأصول الدين غير أن الهوى قد جرفهم فانحرفوا ، وانقلبت المفاهيم عندهم رأساً على عقـــبٍ ، وأصبح التعريب عنـدهم جريمةً ، وعملوا على إحياء مـا انـدثر مـن آثـار العصبيـة ، وأصّروا على أهليهم بـالحديـث بلغتهم القومية فقط .

وفي صدر الإسـلام انتشرت اللغة العـربية مـع الفتوحـات حتى عمّت ديار الإسلام كلها ، وغدت البلاد المفتوحة لا تعرف سوى العـربية لغةً ، وإن بقيـت جذور للغات السـابقة دون أن تكون لها أبجديةً ويتناقلها بعـض السكان باللسان فقط ، ودوّن المسلمـون المعارف والعلـوم بـاللغة العـربيـة ، ولـذلك أطلـق

الفرنجة على الخلافة اسم الدولة العـربية الإسلامية كي يتجنّبوا لفظ الخلافة ، وكثيراً ما كانوا يحذفون كلمة الإسلامية ليبقى لفظ الدولة العـربية في سبيل إثارة غير العرب على العـرب . وأحياناً أخرى يطلقون « الامبراطورية العربية الإسلامية » لتعني سيطرة العرب على بقيـة الشعوب الإسلاميـة لإثارتهم عليهـم ، حيث تعني كلمـة « الامبراطورية » بـاصطلاحهم سيطـرة شعب على شعوبٍ ، وممـا يؤسـف أن بعض النقلة العـرب الذيـن يُسمّون أنفسهم كُتّاباً قد حاكوا الفرنجة باستعمال هذا الاصطلاح .

كانت الخلافة عـربيةً إسلاميةً ، عربيةً بلسـانها لا بقومها ، إسلاميـةً في شرعها ، رغـم وجود دويـلاتٍ منفصلةٍ وإمـاراتٍ مستقلةٍ تحمـل أسماء مؤسسيهـا لا أسماء شعوبها لتعطـي دلالةً على أن الـدويلة أو الإمـارة قـامت بنـزعـةٍ شخصيـةٍ لا بتأييـدٍ عصبيٍ . ودُوّنت العلوم باللغة العـربية بغضّ النظر عن الإمارة التي نشأ فيهـا العالم ، أو الإقليم الذي ينتمي إليـه ، ومن هؤلاء العلماء على سبيل المثال :

البخاري الذي نشأ في بلاد ما وراء النهر في الإقليم المعروف اليوم باسم أوزبكستان .

وأبو داود الذي نشأ في سجستان في الإقليم المعروف اليوم باسم أفغانستان .

والترمذي في بلاد ما وراء النهر ، في الإقليم المعروف اليوم باسم أوزبكستان ، وترمذ مدينة عامرة على نهر جيحون على الحدود بين أفغانستان وأوزبكستان .

والنسائي في بلاد التركمان في الإقليم المعروف اليوم تركمانستان .

وأبو حنيفة أحد أئمة الفقه ، وأصله من فارس التي هي ضمن الإقليم المسمّى اليوم إيران .

والخُوارزمي الذي نشأ في بلاد ما وراء النهر ، في الإقليم المعروف اليوم أوزبكستان ، ومدينة خيوه عامرة إلى هذه الأيام ، كما أن بحيرة خُوارزم مشهورة ، وهي المسماة اليوم « بحر آرال ».

والبيروني الذي نشأ في إقليم السند في البلاد المعروفة اليوم

باسم باكستان ، وبلدة بيرون مدينة عامرة إلى اليوم .

ولننتقل إلى الجناح الغربي من ديـار الإسلام ، ولسنا بحاجةٍ إلى أن نتحدث عـن علماء الأندلس إذ معـروف أن تلك الـديار كانت عربية اللسان بشكـلٍ تام . ولنعرّج قليلاً إلى صقلية التي دخلها المسلمون ، فسادت فيها اللغة العربية ، وعندما سقطت بيد النورمان بقيـت العربية لغة العلم ، كما هي لغـة الديوان أو الرسميـة ، كما تسمّى اليوم . ولنـذكر أن الشريـف الإدريسي قد قدّم لحاكم صقلية النورماندي كتـابه المعروف بـ « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » وهـو باللغـة العربية ، كما قـدم له خـريطته المشهورة للعالم ، وهي باللغة العربية أيضاً ، ولننتقل من صقلية إلى جـزيرة مـالطة التـي لاتـزال لغتها عـربيةً إلى الآن ، ولكـن طمست فغابت عن الناس لأنها كُتبت بالحرف اللاتيني حسب اللهجة المحلية القريبة من اللهجة المغربية .

ولنترك الكتابة ولننظر إلى الطباعـة التي انتشرت في المناطق التـي سادت فيهـا اللغـة العـربية ، ولنـأخـذ مثـلاً من البقـاع المجهولة لـدى الناس اليوم ، فمدينـة قازان قاعدة إقليـم تتاريا

في المناطق التي يسيطر عليها الروس في حوض نهر الفولغا كانت فيها مطبعة مختصة بطبع كتاب الله ، وبقيت هذه المطبعة حتى أحرقها الشيوعيون حتى دخلوا المدينة ٢٨ شعبان ١٣٣٨ هـ (١٧ أيار ١٩٢٠ م) . ومطبعة مدينة أورنبرغ قاعدة الإقليم الذي يحمل اسمها . وإن أعطاها الروس اسم (شكالوف) لفصل حاضرها عن ماضيها .

وهناك الجامعات مثل جامعة قازان التي كانت تضمّ سبعة آلاف طالب يوم دخل إليها الشيوعيون وجامعة مدينة «مونبيليه» في جنوبي فرنسا الإقليم الذي بقي فيه المسلمون تسعين عاماً ، وقد درس في هذه الجامعة كبير بطارقة الفاتيكان (البابا) سلفستر الثاني .

هذه الحضارة الإسلامية العربية قد أُصيبت بعدة نكباتٍ .

١ ـ التجزئة : لما ضعفت دولة الخلافة أيام الدولة العباسية ، وأخذت تقوم بعض الدويلات ، وتنفصل بعض الإمارات ، أخذ بعض رؤسائها وخاصةً في شرقي أراضي الخلافة يحيون

اللغـات القـديمة لشعـوبهم ليكـون مبرراً لقيـامهم ـــ حسـب زعمهم— وليُثيروا لـدى الرعية حميةً جـاهليةً ، تميّزهم عـن بقية أهـالي ديار الإسـلام ، ليبقوا منفصلين عنهـم ، وليُـدافعوا عـن كيانهم وهكذا أخذت العربية تنحسر عـن المناطق التي دخلتها مرفـوعة الرأس تحت شعـار الإسلام ، وخـرجت ذليلةً مطـأطئةً تحت راية العصبيـة . ولم تكن لتلـك اللغات حـروف تكتب بها لذا فقد استخدمت الحروف العربية لكتابة تلك اللغات ، وكان ذلك يُساعدهم على قراءة تلك اللغات لمعرفتهم السابقة باللغة العربيـة ، وفي الوقت نفسـه فقد أبقـت تلك اللغات بكتـابتها العربيـة الناطقين بها على صلةٍ بالقـرآن الكريم حيـث يمكنهم قراءتـه دون معرفـة معانيـه ، وكذا الحديـث النبوي ، أو تسهّـل تعلّـم العربيـة وقـراءة القرآن . ومـن اللغـات التي استعملـت الحرف العربي الاندونيسية ، والملايـوية ، والأوردو ، والفارسية ، والتركية ، ولغات الشعوب التي خضعت لسيطرة الروس ، ولغة جنوبي الفليبين والسـواحلية في شرقي إفـريقية ، وبعـض لغات القبائل الإفريقية.

٢ ـ الضعف : لما تمكّن المستعمرون النصارى من معظم ديار الإسلام ، وصار لهم أعوان ، يُظهرون الإسلام ، وهم ليسوا من أهله ، فأوحوا إلى أولئك الأعوان بإلغاء الحروف العربية من لغاتهم ، واتخاذ الحرف اللاتيني في كتابة لغاتهم ، وذلك في سبيل قطع كل صلةٍ بالعربية ، وإن كانت صلة الحرف ثانويةً إلا أنها ذات أثرٍ في تعليم قراءة القرآن ، والحديث النبوي . لقد قام مصطفى كمال بإلغاء الحرف العربي من كتابة اللغة التركية ، وأمر أن يكون الحرف اللاتيني هو المعوّل عليه في الكتابة . وهذا ما شجّع هولندا بأن تقوم بالدور نفسه في أندونيسيا ، كما أن روسيا سلكت المسلك نفسه بالنسبة إلى الشعوب التي تُسيطر عليها ، وكذا قامت بريطانيا بالنسبة إلى اللغة السواحلية ، وفعلت الصومال ذلك بعد انضمامها إلى جامعة الدول العربية ، وقد أعلنت ذلك في ١٤ رمضان ١٣٩٢هـ (٢١ تشرين الأول ١٩٧٢م) يوم الذكرى الثالثة للثورة وذلك لعدة اعتبارات ، ولظروفٍ خاصةٍ ـ حسب ـ رأي البيان الذي أذيع يومذاك . ولم يبق من اللغات يكتب بالحرف العربي سوى الفارسية ولغة

الأوردو التي تتكلم بها باكستان . ولغة جنوبي الفليبين .

٣ ـ **التبعية** : بعد أن تبعت بعض الأمصار الإسلامية إلى الدول النصرانية الكبرى ، فرض المستعمرون لغتهم رسمياً ، وجعلوا تعليمها إجبارياً إلى جانب اللغة المحلية ، ولما كانت اللغة المحلية ضعيفةً ، وأصحابها مستضعفين ، لذا فقد أصبح السكان يُقلّدون الأقوياء ، ويُحاكونهم في لغتهم ، حتى شاعت ، وأخذت تترسّخ تدريجياً حتى عمّت وهذا ما نلاحظه في معرفة المسلمين للغة الروسية في الأمصار التي كان يُسيطر عليها الروس ، والفرنسية في الأمصار التي كانت تخضع للفرنسيين ، والإنكليزية في الأمصار التي كانت تُسيطر عليها بريطانيا ، وكذا بقية لغات المستعمرين من هولنديين ، وبلجيكيين ، وبرتغاليين و.... ثم انتشرت الإنكليزية عندما أصبحت الهيمنة للولايات المتحدة الأمريكية على العالم . حتى أن الهند قد ألغت لغة الأوردو التي يعرفها عامة المسلمين وكثير من الهندوس وفرضت لغة محلية لا يعرفها إلا القليل ، وأطلقت عليها الهندية .

أما في البلدان العربية فإن المستعمرين النصارى قد فرضوا لغاتهم ، وعدّوها رسميةً إلى جانب اللغة العربية ، وأجبروا الطلاب على تعلّمها في المدارس في بداية المرحلة الابتدائية إلى جانب لغتهم العربية ، ولكن ما أن استقلت البلاد ، حتّى أخّرت تعليم اللغة الأجنبية إلى المرحلة المتوسطة ، وأصبح تعليم اللغة الأجنبية للعلم والمعرفة ، ثم لمتابعة موكب التطوّر العلمي لا لإضاعة شخصية الأمة بإضافة لغتها .

لكن في البلدان العربية التي تمكّن منها المستعمرون النصارى ، وعدّوها جزءاً من أرضها كما هي الحال في بلاد المغرب العربي وخاصةً الجزائر فقد فرضت فرنسا الدولة الاستعمارية لغتها ، وجعلتها الرسمية الوحيدة في دوائر الدولة ، وألزموا الناس على تعلّمها ، والحديث بها ، والطلاب على دراستها ، في سبيل إضاعة الأمة لهويتها ، وبالتالي لشخصيتها ، وأصبح حديث الناس فيما بينهم تتخلّله الكلمات الفرنسية ، وتكاد تصل كلماتها بالعدد ، إلى عدد كلمات اللغة العربية إن لم تتفوق على ذلك. بل ربما لا يستطيع أحدهم قراءة الفاتحة باللغة

العربية الفصحى ولابدّ من إدخال بعض كلمات اللغة الفرنسية فيها . وعندما استقلّت البلاد ، مشت في طريق التعريب ، وأخذ الشعب يستعيد هويته فظهرت شخصيته المتميزة وهذا ما هزّ الأعداء في الخارج ، وأعوانه في الداخل فوقفوا في وجه هذا التيار الذي حمل هويته ، وأراد إعلانه ، وعملوا على ضربه ، ورأوا أن التعريب سبب من الأسباب الرئيسية في بروز الشخصية الإسلامية فعملوا مع الأسف على ترك التعريب والعودة إلى الفرنسة من جديدٍ وذلك في سبيل إماتة الشخصية الإسلامية والقضاء على التيار الإسلامي النامي .

وهناك بلدان لم يدخل إلى أراضيها الاستعمار العسكري فبقيت اللغة العربية على حالتها في بداية الأمر حتى إذا ظهرت الهزيمة النفسية بدأت محاكاة الفرنجة وخاصةً في اللغة التي ملأت الشوارع ولافتات المحلات ، وغدت الأحاديث متفرنجةً، حتى غلبت الكلمات الفرنجية على العربية ، وأخذت الشخصية الإسلامية تضيع تحت شعار لغة العلم ، لغة المدنية ، واللغة الحية و..... ويأتي الغريب الخادم أو السائق فيؤثّر على

أفراد البيت جميعاً ، ويصبح كل من في الدار يُكلمونه بلهجةٍ أعجميةٍ ، أو يحاولون محادثته باللغة الإنكليزية ، وهم كجماعةٍ ولهم السيادة لا يُؤثّرون بفردٍ أجيرٍ ،وإنما يُؤثّرالأجير فيهم، وفي المؤسسات والدوائر ترى الخادم المستقدم ، الضعيف الذليل يُؤثّر بالموظفين جميعاً ، وقد يكون بينهم العالم (الكبير) ، وذو الشأن ، وصاحب المكانة دون أن يتأثّر بهم للهزيمة النفسية لديهم والشعور بالنقص دون أن يحسّوا بذلك ، فكل يُكلّمه بلكنةٍ أعجميةٍ ، ويلوون ألسنتهم ، فلا هو يستقيم لسانه بل يبقى كما هو ، ولاهم يُحسنون إليه ، ولا يعتادون على الكلام الصحيح، والمنطق السليم فهل هذا ضعف أم هذه ضعة، للقوة ضعف، وللذلّ تأثير؟ .

ولما كان الاستعمار النصراني مختلفاً بلغته حسب الدولة الاستعمارية لذا فقد تباينت الثقافة ، واختلفت اللغة التي شاعت ، والكلمات التي عمّت في المجتمع ، وهذا ما زاد في الهوة بين لهجات البلدان العربية ، وبالتالي ساعد في ضياع هوية السكان .

وعمل أعوان الأعداء على الهدم من الـداخل فأخذوا بطرح أفكارٍ على السـاحة ، وكلها تعمـل على ضرب اللغة العـربية في سبيـل إضاعـة الهويـة ، وفي سبيـل طعن الإسـلام إذ أن اللغـة العربية هي التي تجمع بين السكان والتفاهم فيما بينهم ، ووحدة الثقـافة والفكر ، وتستمد قـوتها أيضـاً من القـرآن الكريـم ، إذ يُحافظ عليهـا ، ويمدّها بالقـوة ، وفي الوقت نفسه يسهـل فهمه بمعـرفتها . ومـن الأفكار التـي طرحهـا الأعوان ، كتـابة اللغـة العربية بالحرف اللاتيني بحجة السهولة والتخلص من الشكل، وليتسنّـى للآخـريـن معرفتهـا ، وفي الواقـع للبعـد عن القـرآن الكريم، والنـأي عن فهم مراميـه ، ومعرفة بلاغتـه ، فهو منهج حياة ، ودستور المسلمين ، وبالبعد عنـه يفقد المسلمون أسلوب حياتهم، وبـالتالي تضيـع هويتهـم ، وتمّحي شخصيتهـم . ومن هذه الأفكار كتابة اللغة العربيـة باللهجة المحلية بحجة سهولة فهم الناس لها ، والواقع لإبعاد الأمـة عن فهم كتابها ، كما سبق أن ذكرنا ، إذ أن الأفكار المطروحة مـن أعوان الأعداء كلها ترمي إلى هدفٍ واحدٍ وهو ضرب الإسلام ، ولهذه الفكـرة مرمىً أيضاً

هو تجزئة الشعب العربي حيث لم يعد السكان في إقليم يفهمون لهجة سكان الإقليم الآخر ،وتتطوّر مع الزمن إلى لغةٍ خاصةٍ في كل إقليمٍ ، فلا يفهم الشـامي لغة المصري ، ولا المصري يعرف لغة المغربي ، وكل يتعصّب للهجته ويتبجح بها .

كما أن بعض هؤلاء الأعوان قد اتجهوا إلى إحياء لغة الإقليم الجاهلية القديمة وتعصّبوا لها ، ودعـوا إلى دراستها ، ومعرفتها ، وتعلّمهـا ، والكتـابـة بها ، والحديث بها ، وذلـك لإبعـاد اللغـة العربية ـ لغة القرآن الكريم ـ نهائياً عن الساحة ، ونسيانها تماماً، وذلك للهدف الذي ذكرناه نفسـه ، وعلى سبيل المثال كتب طه حسين ، ذلـك الرجـل الـذي لّمعتـه وسائل الإعـلام النصرانيـة والمحلية حتـى جعلت منـه صنماً ، كتب رسـالةً إلى سعيد عقل باللغة الهيروغليفية ، لغة مصر القديمة ، ولاشك فإن سعيد عقل لا يعرفهـا ، وليس الهدف مـن ذلك المعـرفة ، وإنما لإبـراز تلك اللغة، والعمل على إحيائهـا ، فأجابه سعيد عقل برسـالةٍ باللغة الفينيقية، لغـة الساحل الشـامي الشمالي ، وطـه حسين لايعرف هذه اللغة بل إن الرسـالتين لا تضمان أي معلوماتٍ أو أخباراً ،

أو تحيـات .... وإنما مجرد كلماتٍ متقطعـةٍ لا معنى لها هـدفهـا إبـراز تلك اللغـات القـديمة ، والبعـد عـن العربيـة ، وضرب الإسـلام ، وإعـلان الحرب عليـه بأشكـالٍ مختلفـةٍ وصـورٍ غير مباشرة .

كـانت لغـات الدول النصرانيـة التي انتشرت في الأمصـار الإسـلامية متعـددةً بتعدد الـدول الاستعمارية ، إذ انتشرت لغـة الدولـة الاستعمارية في الأقـاليم التي سيطـرت عليها مـن ديار الإسلام ، فقد انتشرت مثلاً الهولندية في أندونيسيا ، والبرتغالية في غينيا ـ بيساو ، وبعض أجـزاء أندونيسيا ، والألمانية في أجزاء إفريقيـة الشرقية التي تخضع لنفـوذ ألمانيا ، والإيطاليـة في ليبيا ، وأريتريا ، والجزء الجنوبي من الصومال ، والروسية في البلدان التي تقع تحت السيطرة الروسية في وسط آسيا ، وأقاليم القوقاز ، ومنطقة الفـولغا ، والصينية في تـركستان الشرقية ، والفـرنسية في الأمصار التـي تستعمرها فرنسـا ، والانكليزية في الأقاليـم التي تُسيطر عليها بريطانيا ، وهذه اللغات المتعددة والمتباينة لاشك تضعـف الصلة بين أجـزاء الأمة الإسـلامية الـواحدة . وخـفّ

التباعد قليلاً في المرحلة التي استقل فيها كثير من الأمصار الإسلامية ، وعمل المخلصون في هذا الميدان ، وساهمت الحركات الإسلامية مُساهمةً فعّالة غير أنها كانت دون المطلوب، حيث لم تستطع مقاومة المخططات الاستعمارية ذات الإمكانات الضخمة وذات الأعوان المتسلّطين على كثيرٍ من ديار الإسلام .

ومع سيطرة الولايات المتحدة الأمريكية وهيمنتها على أجزاء واسعةٍ من العالم اقتصادياً وسياسياً طغت لغتها الانكليزية على تلك الأجزاء ، وانتشر أعوانها ، والمتفرنجون ، وأصحاب الشهوات ، وأعداء الإسلام جميعاً يعملون لطغيان تلك اللغة تحت شعارات « لغة العلم » و « اللغة العالمية » و «لغة التفاهم بين البشر » والناس على جهلٍ من أمرهم ، وعلى غفلةٍ يسمعون ، ويُردّدون ، ويُقلّدون ، حتى أصبحت الأمة المسلمة في شبه ضياع ، ما تسمع إلاّ كلمات انكليزية تُردّد بين المسلمين ، وجملاً أثناء الأحاديث العادية ، وهي تزداد مع الزمن، ومع ارتقاء الأعوان ووصولهم إلى رؤوس السلالم في عدد

من الأمصار ، وتشجيعهم لهذا رغبةً وتخطيطاً وتبعيةً وهدفاً .

لقـد كان المسلمـون يتنقّلـون في أقـاليمهم كلهـا دون أيـة حواجز وحيثما سار الإنسان في ديار الإسـلام يسمع الكلمات العربية سواء أكان الشعـب عربياً أم أعجمياً ، كلمات : السلام عليكم ورحمة الله وبركاتـه . كيف صحتكم ، بخير إن شاء الله . أعوذ بالله . وأحاديث نبوية ، كلمات ، وآيات من القرآن الكريم تُتلى أثنـاء الكـلام وربما بيـت من الشعـر ، أو مثـل سـائر ، أو حكمة شائعة هذا بالنسبة إلى العامة ، أما بالنسبة إلى أهل العلم فحديثهـم بالفصحى ، وكـذلك كلامهـم ، وكتابتهم ، وذكـرنا بعض ما قـدّمه علماء المسلمين من الأعاجم للحضـارة العربية الإسـلامية بكتـابتهم ، ولايـزال من آثـار أولئك العلماء كتبهـم ضمن كتب التراث ، كما لايزال بعض العلماء إلى وقتنا الحاضر ، ممن وعى قلبه ، وانشرح صدره ، وصحـا عقله . وإن كان هؤلاء قلـة إلا أنهم مـوجودون ، ويـزداد عـددهـم مع زيـادة انتشـار الإسلام ، والوعي ، ومعرفة الـواقع ، وما يُخطّط للمسلمين ، وما يُكاد لهم ، وما يجري حولهم ، وبين ظهرانيهم .

وأما اليوم فحيثما سرت في أرجاء العالم الإسلامي فلا تسمع إلا رطانةً في اللسان ، ولكنة أعجمية في الكلام ، وفرنجة في الحديث ، وتعالم وشموخ أنف عند أولئك المستغربين ، وهزيمة نفسية عند الذين لا يُجيدون التفرنج ، وقد يحتاج المسلم العربي في بلاد العرب إلى ترجمان ، ويجد نفسه غريب الوجه ، واليد ، واللسان هذا في الأمصار العربية ، أما في غيرها من ديار الإسلام، فقد تمكّنت اللغة الأجنبية ، وأصبحت لغة التخاطب ، وربما اللغة الرسمية في عددٍ من الأقاليم ، وهكذا أخذت الأمة الإسلامية تفقد هويتها ، وما امتازت به من عربية في اللسان وما ذلك إلا نتيجة ترك لغة القرآن الكريم ، والحديث النبوي ، وكتب الفقه ، والتاريخ الإسلامي ، والسير ، وإهمالها لذلك غفلةً وجهلاً ، وعصبيةً أحياناً .

جاء مسلم من أساتذة الجامعة من إقليم البنغال ليُدرّس في إحدى الجامعات العربية أملاً في أن يُتقن لغة القرآن الكريم ، غير أنه رجع بعد خمس عشرة سنةً كما جاء ــ حسب قوله ـ إذ يقول : إن المحاضرات باللغة الإنكليزية ، والأسئلة والإجابة

لاشكّ بـاللغة نفسهـا ، ويدور الحديـث في اجتماعات القسـم كـذلـك بالإنكليـزيـة ، وخـارج قـاعة المحـاضرات يُكلّمنـي الأساتذة بـاللغة الأجنبية فأرجـوهم أن يكون الحديث بـالعربية عسـى أن أتعلمهـا ، غير أن الـواحـد منهـم يصرّ على الكـلام بـالأجنبية بقصـد إظهار معـرفته أيضـاً للغة الإنكليـزية ، وأنـه (مثقـف)، والـواقـع أن الشعـور بـالنقـص يكـاد يقتلهـم ، والإحساس بـالضعة يوشـك أن يقضي عليهم جميعاً . وهـا أنذا أعـود حـزيناً كئيبـاً إذ لم أتعلـم شيئـاً مـن اللغة التـي أحببتهـا لارتبـاطها بعقيـدتي ، كما أني شعـرت أن أمتـي تسير في طريـق الضياع ، وتعمـل على فقدان هويتهـا قاصدةً ومـن غير قصدٍ ، فالأعـاجم يـرتبطون بلغة أمتهـم ويسعون إليهـا ، وإلى أهلها ، ومهـدهـا ، وأهلهـا زاهـدون بها يـرتبطـون بلغـة الأجـانـب ، ويتعلّقون، ويتباهون بذلك، فوا أسفاه على أيام مجد تلك اللغة، لغـة القرآن ، فهـي تصرخ بأهلهـا ، ولكـن لايسمعون النـداء ، ويطلبون الدعوة بالانكليزية كي يفهموا ، ويمكنهم الجواب .

الرأي في تعلّم اللغة الأجنبية :

نحن لا نُمانع بتعلّم اللغات الأجنبية بـل نُطالب به ، ونرى أنه مـن الضروري أن يكوّن جهاز كـامل يتقن اللغـات الأجنبية كلها حتى لا يصدر كتاب علمـي إلا ويُترجم إلى لغتنا ، ولنرى مدى فـائدتنا منـه ، ولا يُكتب بحث أو مقـال يتعلق بـأمتنا إلا ونكـون أول المطلعين عليه ، العـارفين لمضمـونه ، العـالمين عما يُخطط لنا ، والأهـداف البعيدة التي يقصدها ذلـك المقال ، وما يأتي إلينا وفد ، ومـا يذهب من عندنا وفـد إلا ونعرف ماذا يدور بيننا ، ويمكننـا الحوار معهم . بـل لابدّ مـن وجود جهـازٍ لكل اختصـاصٍ علمي لمواكبـة تطوّر العلـم ومتـابعة مـا يجري على الساحة العلمية من مستجدات .

غير أن تعلّـم اللغة الأجنبيـة ، وهو مـا نُطـالب بـه شيء ، والمحادثة فيها ، واستعمالها كرديفٍ للغة العـربية بل كبديلٍ أمر آخـر . إن تعلّم اللغـة الأجنبية كعلـم أمر مطلـوب ، وكل أمـة تحرص أن تطّلع على مـا تتوصل إليـه الأمم الأخرى مـن علومٍ ، وذلك كي تأخذ بأسباب التطوّر ، وليكون تبادل علمي بين أممٍ

الأرض في سبيل خدمة الإنسانيـة والعمل على إسعادها لتجنّب بعض الأمراض بمعرفة الـدواء ، ومكافحة الأخطار ، والحدّ من انتشار الأوبئة .

ولكن الأمر المرفوض ، والذي يأباه كل مسلم ، ويمقته كل من في قلبـه ذرة إيمان هـو اتخاذ اللغـة الأجنبية لغـةً بديلـةً للغة العربية في التعليـم بحجة أن اللغة الانكليزية هـي لغة العلم ، والتبـاهي بـالحديث بلغـةٍ غير لغة الأمـة تحت شعار أن اللغـة الإنكليزيـة لغة حيـة ، والاندفـاع نحو اللغـة الإنكليزيـة تحت شعار أنها لغة سهلة التعلّم بسيطة القـواعد ، والمفاخرة بالكلام باللغة الأجنبيـة إشارةً إلى المدنية ، وإظهار التقـدمية ، ولإعطاء صورة عن الثقـافة والوعي ، فكـل هذا يُقدّم مُؤشّراً على هـزيمةٍ نفسيةٍ قاتلةٍ ، وضياعٍ للشخصية ، وشعورٍ بالنقص هذا بالنسبة إلى العامـة من النـاس والجهلة ، أمـا بالنسبـة إلى الذيـن يظنّون أنفسهـم أنهم متعلمون فهـو محاولة مقصـودة لضياع شخصيـة الأمة ، وإفقـادها هـويتها ، والسير في ركـب الأمم النصرانيـة ، والواقـع أن هؤلاء جهلـة ، ولو ظنّـوا بأنفسهـم العلم ، وادعـوا

المعرفة . فما الرأي فيمن يحاكي أعداءه ، ويرفع من شأن لغتهم ، ويضع من مكانة لغته ؟ وما ستكـون النتيجة عندما نتكلم بلغة غيرنا ، ونقلّـدهم ، ونهمل لغتنـا ؟. لاشك أن الأبنـاء سينشأون على جهلٍ بلغتهم فينقطع ما بينهـم وبين ما ضيهم ، ويعجزون عن فهـم تراثهم ، وبـالتالي يصعـب عليهم معرفـة كتاب الله ، وبالتالي لا يستطيعـون قراءته ، ولا يدرون أحكـامه ، ويبتعدون عنه تـدريجياً حتى ينسونـه ، وتهمل العقيدة ، وهذا مـن أهداف الأعداء ، وبعدها تضعف ثقافته فيما يتعلـق بأمته ويقلّ ارتباطه بهـا ، ويتّجه نحو الأمة التـي يتكلّم لغتها ، ويتثقّف بثقافتها ، ومـن ثم يصبـح جزءاً منهـا ، وأحد أبنـائها ثقـافةً ، وعـاداتٍ ، وتقاليد ، وفي نهاية المطاف عقيدةً ، وهذا آخر أهداف الأعداء ، وخاتمة تنفيذ مخططاتهم .

والتعليم بـاللغة الأجنبيـة لايمكن للمـدرس مهما أُوتي من علم بلغـة الأعداء وبيانٍ بها لا يمكنـه إفهام الطـلاب وإدخال المعلومـات وتوصيلهـا إلى مداركهم كما لـو أدّاها بلغتهـم التي نشأوا عليها وتربّوا على سماعها ، ولُقّنـوا معانيها ، وأهداف تلك

المعاني البعيـدة ، والمترادفات فيهـا ، فهذا تقصير مـن الناحيـة العلمية أولاً ، وبالتالي إضعـاف للغة الأمة ، ويلي ذلك إهمالها ، فنسيـانها ، فإمـاتتهـا ، وما أعتقـد أمـةً مـن أمم الأرض تعمـل بنفسها على ترك لغتهـا وتفضيل غيرها عليها ، وخاصـةً بالنسبة إلى الأمة الإسلاميـة فإن اللغة العربية لها ارتباط بـالعقيدة . ولو نظرنا إلى اللغات الضعيفة في العالم لوجدنا أن أهلها والمسؤولين فيهم يحرصون الحرص كلـه على التعليم بلغة أمتهم مهما كـانت مكانتها ضعيفةً ، لـرفع مكانتها عند أبنائهـا وبالتالي بين لغات العالم أو بـالأحرى يـرفضون التدريـس بغير لغتهم مهما كـانت مكانتهـا ضعيفةً ومهما كـانت الإمكـانات ضئيلـةً ، ومهما كان مستوى اللغة منحطاً ، فدولة كوريـا الجنوبية مثلاً رغم ارتباطها الـوثيق بـالولايـات المتحدة الأمـريكية ، ورغـم مستوى لغتهـا الضعيف ، ورغـم الإمكانـات المادية المتعبـة فإن الشعـب فيها يـأنف أن تُلقـى المحـاضرات على أبنائه بـاللغـة الانكليزيـة ، ويُصرّون على أن يكون التعليم بـاللغة الوطنية ، ويأبـى أساتذة الجامعات إلا أن يُدرّسوا بلغتهم اعتزازاً بها ، وإثباتاً للشخصية

الكوريـة ، ويقومون في الـوقت نفسـه بترجمة كل ما يصـدر من كتبٍ بلغـات العالم كلهـا في مجالات العلوم جميعهـا إلى لغتهم ، وتوضع هذه الكتب بين أيدي أصحاب الاختصاص .

وبا لمقـابل فـإن كثيراً من الأمصـار الإسلاميـة تتبنى اللغـة الانكليزيـة لغةً رسميـةً لها ، وهي غالبـاً التي كـانت تحت دائرة النفوذ الإنكليزي ، ويعتمد بعضها الآخـر تلك اللغة للتدريس في الجامعـات على أنها هي لغـة العلم ، وأكثـر الكتب العلميـة مُدوّنـة بها ، ومن المؤسـف أن الذين يعتمـدون الإنكليزيـة لغة للتدريس يتعصّبـون لها تعصّباً شديداً ، ولا يتصـورون ـ حسب زعمهم ـ أن تـدرس المواد العلمية باللغة العربيـة ، وهم في هذا يُهاجمون لغتهم ، ويتنكّرون لها ، ولأمتهم ، ويسيرون في فلك أمةٍ ثانيـةٍ ، ولو أراد المرء أن يسبر غـور هؤلاء لـوجد أنهم يلتحقـون بغير أمتهم ، يُحاكون تلك الأمة لغةً ، ويُقلّدونها في منهج حياتها بل هم أداة لتنفيذ مخطط تحطيم الأمة الإسلامية سواء أكانوا على علمٍ بذلك أم كانوا على غير علمٍ ، ويبدو أن الأول هو الأرجح حيثً يظهر ذلك في سلوكهم وتصرّفاتهم .

ب ـ التاريخ :

يعدّ المسلمون جميعاً على اختلاف ديارهم ، وأجناسهم ، ولغاتهم ، وألوانهم أن تاريخهم الحقيقي الذي يفخرون به إنما يبدأ باعتناقهم الإسلام ، وما عداه فجاهلية لا ينظر إليها إلا عندما يراد التمييز بين الإسلام الذي رفع من قيمة الأمة ، ونهض بأفكارها وعقائدها وبين المرحلة التي سبقته عندما كانت تسيطر الجاهلية إذ لم يكن الناس ليصلون إلى مستوى أدنى البشر حيث كانت تتحكم فئة بأخرى ، ويستعبد الناس بعضهم بعضاً ، ويُجبرونهم على اتخاذهم أرباباً من دون الله ، هذا بالإضافة إلى تسلّطهم على المرأة والمستضعفين مع ما كان يرين على قلوبهم من أفكار غريبة وصلت بهم إلى أن يعبدوا الحجر في أمكنةٍ ، والبشر في جهات ثانيةٍ ، والبقر في أمكنةٍ أخرى ، والشجر في بقاعٍ ثالثةٍ . ولا يقصد بالجهل ضد العلم ، وإنما ضدّ الهدى ، فقد طغت الأوهام على عقولهم ، وطمست على أفئدتهم فمنعت النور من الوصول إليها . ويقول أحد قادة الفكر الإسلامي : « ولست أرى في تاريخ الفكر الإنساني

وصمة عارٍ أشدّ من قبول الوثنية ديانةً ، والأوثان آلهةً ، وهي صمّاء بكماء ، لا تسمع ولا تُبصر ، ولا تعقل شيئاً وعبادة الأصنام المتخذة من حجارة ـ وهو الغالب في الأصنام ـ أقلّ ما يُقال فيها أنها تربط العقل الوثني بالأرض وأحجارها ، وتحدّه من النظر في السماء وآفاقها ، تحدّه من حرية تفكيره بل تغلّها وتُقيّدها قيداً لا يرجى معه خير في تطورٍ أو تقدّمٍ ، ولكن عبادة الله خالق الأرض والسموات ، ومبدع الأكوان على أجمل نظام يجعل عقل المؤمن متجهاً إلى السماء لا إلى الأرض » (١). وكان رحمه الله ـــ قد قصر موضوعه على المنطقة العربية كردٍّ على جاهليها ، وليس هناك من فرقٍ بين من يعبد الحجر أو الشجر أو البقر أو البشر ، كما هي الحال في الأمم الأخرى .

وعندما تمكّن المستعمرون النصارى من ديار الإسلام ، وطرحوا وشائج بين الأمم ، وكان من هذه الوشائج العصبية

---

(١) مصطفى السباعي في مقالٍ له « العرب والإسلام» نشرته مجلة حضارة الإسلام في العدد الثاني من السنة السابعة .

القومية لإبعاد المسلمين بعضهم عن بعضٍ ، وإيجاد رابطةٍ تصل بين المسلمين والنصارى الذين يعيشون في كنف المسلمين ، وفي ذمتهم ، وذلك لاختراق الرابطة الإسلامية ، ولإيجاد أعوان لهم بين المسلمين كجواسيس لهم ينقلون إليهم كل ما يجري على الساحة ، ولفتنة المسلمين ، وإبعادهم عن عقيدتهم .

طرح القوميون فكرة ربط تاريخ العرب الحديث بالتاريخ القديم للمنطقة ، وحاولوا رفع شأن تلك المدة من الجاهلية وجعلها بمستوى أيام الحكم الإسلامي إن لم تفقها ، غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل ، ولن تستطيع قوة أن تحلّها ذلك المحلّ مهما أوتي أصحابها من عزيمةٍ حيث لايمكن للمسلمين أن يقبلوا وضع « ها نيبال » و « عشتاروت » على قدم المساواة مع أبي عبيدة ، وعمر ، وصلاح الدين ، بل لا يقبل ذلك المنطق والعقل السليم إلا إذا غُيّرت الحقائق وتبدلّت المفاهيم ، وأصبح الحق باطلاً ، والباطل حقاً .

وحاول آخرون أن يعدّوا الفتح الإسلامي نوعاً من الاستعمار والخطوات التي توالت على المنطقة ، فوضعت طوابع تذكارية

عليها صور الفراعنة ، ووضع عند مداخل أجنحة المعارض الدولية تماثيل الفراعنة ، وأطلق على الشوارع أسماء الفراعنة كل ذلك في سبيل وصل السكان بالحياة الفرعونية القديمة ، ولكن المسلمين لم يأبهوا بهذا رغم أن هذه الأقوال تكررت على لسان المسؤولين وبأقلام كتّابٍ أُعطوا صفة التقدير ، فأحدهم رأي طه حسين الذي يقول عن المصريين : « وقد عبثت بهم الخطوات منذ أكثر من عشرين قرناً ، ولكنهم ظلوا رغم ذلك مصريين محتفظين بهذه المصرية »[1] وإن عقلية المصريين ترتبط بالغرب أكثر من ارتباطها بالشرق ، برأي ذلك الكاتب إذ يقول: «إن من السخف الذي ليس بعده سخف اعتبار مصر جزءاً من الشرق ، واعتبار العقلية المصرية عقلية شرقية »[2] .

وعدّ آخرون الفتوحات الإسلامية هجرات اقتصادية دعت إليها الحاجة الملحّة بسبب القحط الذي أصاب الجزيرة

---

(١) طه حسين في الأدب الجاهلي ص ٣١٦ طبع دار المعارف المصرية ـ مصر .

(٢) طه حسين في كتاب « مستقبل الثقافة في مصر » ص ٤١ .

العربية يومذاك ، أو فتوحات اقتضتها الظروف السياسية الراهنة آنذاك والأوضاع التجارية .

وعندما تمكّن المستعمرون النصارى من تشديد قبضتهم على ديار الإسلام ، وأصبحوا المشرفين على المناهج ، عملوا على ربط التاريخ الإسلامي بالتاريخ الأوربي، وعدّوا ذلك كله تاريخاً، وذلك كي لا يتميز التاريخ في الأمصار الإسلامية، ويصبح عامل وحدةٍ وانسجام. فقد قسّموا التاريخ إلى ثلاثة أقسام تبعاً لما مرّ في أوربا، وهذه الأقسام هي :

١ ـ التاريخ القديم : ويبدأ منذ معرفة الإنسان الكتابة حوالي عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد حتى سقوط روما بيد البرابرة الجرمان عام ٤٧٦م ، ويمتاز أواخر هذا القسم من التاريخ بقيام (امبراطورياتٍ) واسعةٍ ، وظهور حضارات مادية حسب المفهوم الأوربي .

٢ ـ التاريخ الوسيط : ويبدأ من سقوط روما عام ٤٧٦م ، وينتهي بفتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ م (٨٥٧هـ) على يد

السلطـان محمد الفـاتح العثماني ، ويمتـاز هذا العصر بسيطـرة الكنيسة ، ورجال الإقطاع ، والجهل .

٣ ـ التاريـخ الحديـث : ويبـدأ من فتـح القسطنطينيـة ، وينتهي في الأيام التـي نعيش فيها ، ويتسم بالثـورة الصناعية ، وانتشار العلـم ، وقيام الحضارة الحديثة حسـب المفهوم الأوربي الخاص ، كما يُقسّمون هذا العصر إلى قسمين :

أ ـ التاريخ الحديث : وينتهي بالثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م (١١٩٣هـ) .

ب ـ التـاريخ المعـاصر : ويبدأ مـن قيام الثـورة الفرنسيـة ويمتدّ إلى وقتنا الحالي .

وإن نظـرةً واحـدةً إلى هـذا التقسيم تُـوضـح لنـا أن هـذه الأحـداث والسمات الخاصـة بكـل جـزءٍ منهـا إنما ينطبـق على أوربا وحدهـا ، ولا يتفق مع ما سـواها . والذي يهمنا بـالدرجة الأولى في هذا المجـال التاريخ الوسيـط الذي امتاز بـالإقطاع ، وسيطرة الكنيسة ، والجهل ، وهذه الميزات لم تكن موجودةً إلا في

تلك القارة ، أما في بقية أنحاء العالم ، فليست هناك من كنائس، وإن وجدت فأصحابها قلّة ، لايمكن لهم السيطرة ، ولا يستطيعون الطغيان . وأما الإقطاع فلم يكن هناك مفهوم إلا المفهوم الموجود في أوربا ، وبصورةٍ عامةٍ غدت كلمة التاريخ الوسيط تعني التأخّر ، والجهل ، والفوضى ، وسوء النظام ، والاستهتار بالقيم كلها ، وإذا نظرنا إلى هذه المرحلة التي نتكلم عنها من التاريخ رأينا بلادنا الإسلامية موطن انتشار العلم ، وسيادة النظام ، ووجود القيم ، فالمدن عامرة بالمدارس والمكتبات ، وهي محطّ أنظار المتعلمين ، ومساجدها مراكز إشعاع ، وكانت الحضارة قد بلغت الأوج في ديار الإسلام في هذه المرحلة وتعدت مجالاتها خدمة الإنسان إلى الرفق بالحيوان . فكيف يمكن أن نضع هذا العصر ضمن مرحلة الجهل ، والتخلّف ، وسيطرة الكنيسة ، وسيادة الإقطاع ، وما ذلك إلا في سبيل إهمال التاريخ الإسلامي ، وإبعاد أهله عنه ، بوضعه ضمن التاريخ العالمي ـ حسب زعمهم ـ .

ونتيجة التوجيه النصراني للمناهج اقتصر كل مصرٍ في العالم

الإسلامي على تدريس تاريخ عصره الحديث مع التاريخ الأوربي المعاصر ليقبل من الفكر الاستعماري ما تريده أوربا أو بالأحرى ليقبل فكره بالاستعمار ، تاركاً تاريخ الإسلام حسب مخططٍ مرسومٍ له ، وطريقةٍ مكتوب عليه أن يسلكها .

على الرغم من كل المخططات النصرانية التي وضعت في سبيل إبعاد التاريخ الإسلامي عن المناهج ، ومحاولة المغالطات التي طرحت لتدريس التاريخ الجاهلي والتاريخ الأوربي إلا أن موضوعات السيرة ، وقصص من حياة صحابة رسول الله ، ﷺ ، لاتزال تتناقلها الألسن ، وتذكرها الأجيال بعضها لبعض ، وتشكل موضوعات تربوية في مختلف الأمصار الإسلامية . كما أن أسماء أولئك العظماء من السلف الصالح لايزال يحملها أبناء هذا العصر على أن أصحابها قدوة ، ومثل عليا بالنسبة إلى المسلمين في كل زمن. فنجد المسلمين لايزالون يُسمّون : عمر ، وطلحة ، وعلي ، وعثمان ، وخالد ، وصلاح الدين ، وسعد و... ونجد من النساء آمنة ، وخديجة ، وزينب ، وفاطمة ، وعائشة و.... وكل هذا يدلّ على ارتباط الحاضر بالماضي ، والتأثّر

بالتـاريخ الإسـلامي ، وارتبـاط المسلمين بعضهم مـع بعضٍ ، ويُشكّل التاريخ إحدى وشائج الارتبـاط ، ويُعطي علامةً مميزةً للأمة الإسـلامية بأسماء أبنائهـا ، وارتباطها بأبطـال معينين مع نـأي الديـار ، واختلاف الشعـوب ، وتبايـن القبائل ، وابتعـاد الأقاليم.

جـ ـ الآمال والآلام :

لما كـان المسلمـون أمـةً واحـدةً ، وكـانـوا كتلـةً واحـدةً ، ويتمثّلـون قـول رسـول الله ، ﷺ : « **مـثـل المؤمنين في توادّهـم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسـد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر البـدن بالسهر والحمـى** » ، لذا كـانوا إذا ألّمت بإقليـم نازلة اضطـربت بقية الأقـاليم ، وبدا ذلـك على وجوه السكانً من وجوم وانقبـاض وتأثّر ، وإذا حدث نصر في مصر ابتهجت بقيـة الأمصار وظهر ذلك على وجـوه الرعية جميعـاً من الابتسـامـة والفـرح . فـأحـداث صقليـة ، وتـدفّق الصليبيين وحملاتهم إلى الشـام وسـاحل مصر ، ودخـولهم بيـت المقـدس

وبعض مدن الشام ، واندفـاع المغول من المشرق ، وجرائمهم ، وسقوط بغدادبأيديهم ،وسقوط الأندلس بيد النصارى الإسبان، هذه الأحداث كلهـا هزّت كيان المجتمع الإسلامـي هزّاً عنيفاً ، وحـرّكتـه من الأعماق فهـبّ يتلمّـس الطـريق ، ويبحـث عـن الـوسيلـة لاستعـادة ما فقـد . وكـذا فـإن انتصـار المسلمين في مـلازكـرت ، والـزلاّقة ، وفي حطين واستعـادة بيـت المقـدس ، وانتصار عين جالوت قد أثار مشـاعر المسلمين فعمت عندهم الأفراح .

وشعـر المستعمرون النصـارى بتلك الـوشائج التـي تربـط المسلمين بعضهـم مـع بعضٍ ، عـرفـوهـا من خـلال أحـداث التاريخ فغالباً ما كانوا طرفاً في هذه الأحداث ، كما عرفوها حتى في المراحل المتأخرة عندما كـان المسلمون في وضعٍ من الضعف لا يمكّنهـم من القيـام بأيـة حـركةٍ ، وفي وضـعٍ من الجهـل لا يجعلهم يدركون ما يجري على السـاحـة بعيداً عنهم ، وخاصةً إن كانت في ميدانٍ ناءٍ عنهم .

وفي الحرب العالمية الأولى وقفت بريطانيا التي تسيطر على شبه جزيرة الهند آنذاك، بجانب الحلفاء ضدّ الدولة العثمانية التي دُفعت لخوض غمار تلك الحرب دفعاً، وأُجبرت على ذلك، وكانت الدولة أقوى دولةٍ تحمل اسم الإسلام، وتحمل اسم الخلافة، وتشمل على جزءٍ كبيرٍ من بلاد المسلمين، فوقف المسلمون في الهند، موقف الوجوم، موقف الناقد لبريطانيا، والحاقد على سياستها، والمتذمّر من وقوفها ضدّ الدولة العثمانية أكثر من تذمّره لاحتلالها لبلادهم، الهند ذاتها، فكان المسلمون ينتظرون نتيجة المعركة، تنبض قلوبهم حسب تحركات الجيوش، وتلهف أفئدتهم مع سير الأساطيل، وانتهت المعركة، وانتصرت بريطانيا مع حلفائها، واحتلّت بريطانيا مدينة استانبول، عاصمة الدولة العثمانية إثر هزيمتها، وكسر شوكتها، وهنا انفجرت الثورة في الهند، وقوطعت بضائع الحكومة، وأُحرقت حمولات البواخر، وأُغلقت المحلات التجارية، وتعطّلت الأعمال، وعُرفت هذه الحركة باسم حركة الخلافة، إذ تشكلت جمعية الخلافة في الهند إثر إلغاء الخلافة الإسلامية يوم ٢٧ رجب

١٣٤٢هـ(٣آذار ١٩٢٤م) على يد أحد يهود الدونمة المتظاهر بالإسلام وهـو الذي يحمل اسم مصطفى كمال ، والـذي كانت بريطانيا وراءه تدعمه وتُوجّهـه ، وتدفعه لإلغاء الخلافة وبعض المظـاهر الإسـلامية ، كـإلغاء الأذان بـاللغة العـربية ، وإبـدال الحرف العربي بالكتـابة واستعمال الحرف اللاتيني مكـانه ، هذا مـع العلم أن المسلمين في شبـة القـارة الهنـدية أقليـة ،وليسوا أكثـرية . كما شكـل المجلـس الإسـلامي الأعلى في أنـدونيسيـا «جمعية الخلافة في الهند الشرقية » ، وهـي فرع لجمعية الخلافة في الهند ، وأندونيسيا أبعد المواطن عن مقرّ الدولة العثمانية .

وفي الحرب العالمية الثـانية أنزلت بريطانيـا بعض قواتها في أندونيسيـا بعد خروج اليابـانيين ، وكان بين القوات البريطـانية بعض الفرق الهنـدية المسلمة فرفضت هذه الفـرق القتال حيث أبت أن تُقاتل إخواناً لها بالإسلام وهـم القوات الأندونيسية التي هبّت تُدافع عن حماها ضد الغزاة المستعمرين الجدد .

وبعد تقسيم الهند حسب عقيدة السكان إلى باكستان وهند برزت قضية كشمير ذات الأكثرية المسلمة إذ هاجمها الهندوس ،

وأخذوا بارتكاب أبشع الجرائم ، وانتهاك الحرمات ، واغتصاب النساء بالجملة فثارت ثائرة المسلمين في كل بقعةٍ وُجدوا عليها ، فعمل المستعمرون وأعوانهم على كبح جماح المسلمين الثائرين الغاضبين ، واتخذوا مختلف الحيل لتهدئتهم ، ولاتزال هذه القضية كما هي بعد مرور أكثر من ستٍ وأربعين سنةً ، كما لاتزال الجرائم ترتكب ، وتكاد تتكرر يومياً ، والإنسانية قد تبلّدت أحاسيسها .

وحلّت النكبة بفلسطين فتحرّكت الضمائر ، وهاجت النفوس ، وثارت تُريد المعركة ، وترغب في الثأر ، وعلت الأصوات تبغي الجهاد ، وكثرت الاجتماعات ، وغصّت المحافل بالناس تستمع إلى الخطباء ، وكلها تهتف لفلسطين من أرض الشام ، وسار من سار إليها يدفعه الدين ، وأسرع من أسرع نحوها ينوي الجهاد في سبيل الله ، ومنعت الحكومات ما شاء لها هواها أن تمنع ، ولكن إن لم تذهب الأجسام إلى فلسطين فقد كانت هناك القلوب تُحارب وتُجاهد ، وفشل المسلمون ، ونجح أعداؤهم بسبب تلك الظروف وضعف الإيمان الذي اتصف به

المسؤولـون ، وابتليت به الأمة ، وبقـي المسلمون مدةً من الـزمن وكـأن الهزيمـة أصـابـت كـل واحـدٍ منهـم ، وبقيـت الـدول الإسلامية بجـانب قضية فلسطين لاتحيد عنهـا شبراً ، ولا تتخذ فيها رأياً ، ولا تـرسم سياسةً إلا بعـد المشاورات والمداولات مع جيران فلسطين وأبنـائهـا ، ولا يستطيـع الـرعـاة أن يظهـروا أي موقفٍ لا يتفق مع رغبة الشعوب ، بـل كانوا يزاودون ويُتاجرون بهذه القضية ليُرضوا الـرعية حتى سُلّمت القضيـة إلى من يُظهر الإسـلام ، وهـو ليـس من أهلـه ، على حين غفلـة مـن الأمـة ، وحُلّت بصورةٍ مجانبةٍ للحق .

وتحرّك المسلمون في الجزائر ضدّ المستعمريـن النصارى من الفرنسيين ، وكـانت منـازلات بين الطرفين ، وانتصر المسلمـون بإذن الله ، واضطـرت فرنسا إلى الانسحـاب من ديـار الإسلام ، وما كنت تـرى في العالم الإسلامي يومـذاك النصر إلا الابتسامة باديةً على وجوه المسلمين طافحةً على مُحيّاهم .

أحسّ المستعمرون النصارى بما بين المسلمين من آمالٍ وآلامٍ فعملـوا على تفتيتهـا فـوضعـوا المخططات لـذلـك ، وطـرحـوا

شعارات الوطنية الضيقة والعصبيـة القومية النتنة ، والاشتراكية لينفر المسلمـون بعضهم من بعـضٍ ، وليقول الجهلة والـذين في قلوبهم مرض ممن قبل هذه البدائل ما علاقتنا بذلك الشعب في ذلـك المكان النـائي الذي لا تـربطنـا به وشيجـة ، وما صلتنـا بأولئـك البشر البعيديـن عنا ، فلندبّـر أمور أنفسنـا قبلاً ، وإذا استطعنا أن نبحث في أوضاع جيراننا ، أليس ذلك هو الأفضل؟ إن المرض النفسي ، والجهل بالواقع ، والغفلة عن الإسلام تجعل أمثال هؤلاء يقولون الذي ينطقون به .

وعلى الـرغـم مـن تحقيق المستعمـريـن النصـارى لبعـض أهدافهم في حمل جماعات من المسلمين للأفكار الدخيلة البديلة عن الأخوة الإسلامية كالوطنية، والعصبية القومية، والاشتراكية، وفي جعـل بعض أفـرادٍ من المسلمين يتبنّـون المنـاهج الماديـة ، ويُقلّدون الفرنجة في أسلوب حياتهم رغم كل هذا بقيت الرابطة الإسلامية ذات أثرٍ كبيـرٍ في نفـوس غالبية المسلمين وتتحرّك في كـل منـاسبةٍ ، لقـد أقـدم اليهـود على حرق المسجـد الأقصـى فعمّت المظاهـرات بلاد المسلمين واشتاقت النفـوس للجهاد ،

وأعلن الشباب تطـوّعهم للجهاد في سبيل الله ضـدّ اليهود ومن وراءهم من الطغاة والمستعمرين .

وتحرّك الطغـاة المحليين بتـوجيـهٍ مـن سـاداتهم لضرب الحركات والتجمعـات الإسلامية والفئـات الواعية التـي تعمل ضمن الإطار الإسلامي وتدعـو إلى الأُخوة الإسلامية فتجاوبت المجتمعات الإسلاميـة معها ، وأيّدتها ، وأبدت تعـاطفاً معها ، وهذا ما جعل الطغاة بالمقابـل يقف بعضهم إلى جانب بعضٍ ، ويعملون بخطٍ متـوازٍ لضرب الفئات الواعية إسـلامياً ، ومحاولة سحقها ، وتُنسّق وسائل الإعلام بعضهـا مع بعضٍ للعمل ضدّ هذه الفئات ، كما تقوم قوى الأمن بـالدور نفسه وذلك بتشجيع الدوائر الاستعمارية ، وما هو عُرف باسم النظام الدولي ، وهيئة الأمم التـي تُوجّه حسـب مخططٍ صليبي ، وكلهـا تُخوّف الطغاة المحليين من الإسـلاميين في أمصارهـم ، وتدّعـي أنهم يعملون لإزاحة الطغـاة عن مـواقعهم ، ليحلّـوا محلّهم ، وهـذا الادعاء لتُثيرهم فيضربون بيدٍ من حديدٍ ، ويسحقون نخبة المجتمع دون هوادةٍ .

لقـد تجاوب المسلمـون في كـل مكـانٍ مـع جبهـة الإنقـاذ الإسـلامية ، وقـد ظهرت فكـرة محاربـة الإسلام بشكـلٍ جليّ إذ ذُعرت أوربا فهبّت تُعلن استعدادها لاحتلال الجزائر ، واهتزّت الـدوائر الصليبيـة ، وعملـت لـدعـم طغـاة الجزائر ، كما تحرّك الطغاة يُساند بعضهم بعضاً ، ويقدّمون الأموال بسخاءٍ من قبل من يتوفّر لديه المال .

ومع سقوط الشيـوعية العالمية سقطت الشيـوعية المحلية ، والشيوعية صنيعة الـرأسمالية فانقسمت دولة يوغـوسلافيا فقام الكروات بتأسيـس دولةٍ خاصةٍ بهم ، واصطـدموا مع الصرب ، فرغب المسلمون الـذين يتجمع أكثرهم في البوسنـة حتى ليزيد عددهـم على النصف بتـأسيس دولـةٍ لهم فشجّعتهم الـولايات المتحـدة على ذلك ليسهـل ضربهم ، وليكون مجال لسحقهـم ، وأعلنـوا عـن قيام دولتهـم فـاعترفـت الولايـات المتحـدة بها ، فارتّجت أوربـا ، وزلزت الـدوائر الصليبية ، وارتجف الجوار مـن صرب وكروات ، وكـأن نيزكـاً ضخماً سقط على الأرض . أعلـن الجوار الحرب على البـوسنة ، وبـدأ الـدعم النصراني يصـل إلى

الصرب ، وإلى الكروات الذين اتفقوا بعد طول خلافٍ ، جمعهم العداء للإسلام ، أعلن النظام الدولي الجديد الذي يتحرّك حسب تعليمات الدوائر الصليبية بحظر الأسلحة عن الأطراف المتنازعة وذلك خوفاً من وصول الأسلحة والرجال إلى البوسنة من الأمصار الإسلامية حسب تقديرات الدوائر الصليبية التي تعرف تعاطف المسلمين بعضهم مع بعضٍ ، ونفّذت الأمصار الإسلامية تعليمات وأوامر هيئة الأمم والنظام الدولي النصراني الجديد ، أما النصارى فلم يُنفّذوا ، وكأن الموضوع لا يخصّهم أو لم يُوجّه إليهم ، وبقيت الأسلحة تتدفّق إلى الصرب خاصةً من روسيا، ورومانيا ، واليونان بشكلٍ خاصٍ ومن بقية الدول النصرانية الأخرى . وقام الصرب والكروات الذين يعيشون في البوسنة بالاعتداءات والجرائم ، وتدعمهم حكومتا الصرب ، وكرواتيا إضافةً إلى الدعم النصراني .

وبدأت المآسي تحلّ بالمسلمين في البوسنة ، والنكبات تنزل بهم ، مصيبة إثر أخرى ، برد الشتاء دون وسائل دفءٍ ، وحرب من غير سلاحٍ ولا ذخيرةٍ ، وجوع دون موادٍ ، ومن غير أن تصل

إليهم المساعدات ، وفوق هذا تخلٍّ من الإخوان وقت الشدّة ، وجفاء عند الحاجة ، بل يرون أمام أعينهم الدامعة وقلوبهم المكسورة أرتال شبابهم تُساق إلى الذبح ، وأفواج فتياتهم تُقاد إلى الاغتصاب ، وجموع أطفالهم الأيتام والمشردين تُحمل إلى الدول النصرانية لتنصّر بل ساهم اليهود في أخذ أعدادٍ من هؤلاء الأطفال ، أما رعاة المسلمين فلم يُفكروا في أخذ هؤلاء الأطفال لينشأوا على الإسلام ، وليبعدوهم عن أيدي رجال الكنائس والإرساليات التنصيرية ، لم يفعلوا ذلك حيث لم تأتهم الأوامر من السادة ، ولا يمكنهم تجاوزها ، وإن أبدوا أحياناً شيئاً من الوقوف إلى جانب إخوانهم في البوسنة حرصاً على مشاعر الشعب ، لقد ماتت أحاسيس الرعاة وبطائنهم ، وتبلّدت مشاعر الإنسانية .

أما الشعوب الإسلامية فإنها بقلوبهم وعقولهم ومشاعرهم وأحاسيسهم إلى جانب إخوانهم المسلمين في البوسنة ، ولكنهم لم يستطيعوا فعل شيءٍ فالسيوف مسلطة على رؤوسهم ، والأذى والضغط يلاحقانهم ، والفقر والجهل يسحقهم .

وشعرت الـدوائر الصليبية بأحـاسيس المسلمين والتبـاين بينهم وبين رعاتهم لذا طلبت مـن أعوانها المسؤولين استمرارية الضغط على الفئات الإسلامية الـواعية ، والعمل على سحقها ، والدعـاية الدائمة ضـدها ، ودعم وسـائلها الإعلامية بـذلك ، ليتخلّى المسلمون بعضهم عن بعضٍ .

د ـ العادات والتقاليد :

منذ أن اعتنـق الناس الإسلام خضعت أعمالهم لأحكـامه ، ودانت مجتمعاتهم لنظامه، وكانت تصرفاتهم وفق منهاجه فانبثق عن ذلك تشابه في العادات وانسجام في التقاليد ، وكان لهذا أثر واضح ، فالمرأة أُنيطـت بها الأعمال التي فُطرت لها ، وهي تـربية النـشء ، والانصراف إلى الأعمال المنـزلية ، فخلـدت إلى دارهـا تُـربّي الأولاد التربيـة الصـالحة ، فتكـــون التربيـة عماد البـلاد ، والمجتمـع عماده الأخـلاق ، فـالمرأة لا تخرج إلا لحاجـةٍ ، وإذا خرجـت فلباس الحشمـة والوقـار ، وإذا سارت فسير التعفّـف والإغضاء . وارتبط الرجل بالعمل الملائم لطبيعته خارج البيت لكسب القوت ، وإعمار البلاد ، والسعي لازدهار الأمة ورقيّها،

وما أن ينتهي مـن عمله حتى يضطر أن يأوي إلى بيتـه ، ويركن إلى زوجـه ليجد السكـن والراحـة ، وفي المنزل يشعـر الزوجـان بالعـاطفة المتبـادلة ، ويحنـو الأب على أبنائه ، ويحسّ الأطفـال بعاطفـة الآباء ، وتكون الأسرة السعيدة . ولا تـرى في المدينة إلا من يسير لعملـه ، ويتجه لغايته ، وبـذا تكون المدينة الفـاضلة التي ليس فيها من يقضي السـاعات الطوال للتجوال ، وإشباع الغـرائز بـالنظـر إلى تلـك الفتيات الـلاتي تُـرى في كـل مكـانٍ متبرجاتٍ يمضين أوقاتهن دون عملٍ بعد أن اعتمدن على الخدم لتربية الجيل وإعداد المنزل .

وتهدأ المدينة الإسلامية في الليل بعد صلاة العشاء ، وتدبّ الحياة فيهـا من الفجـر الباكـر بعد الصـلاة إذ ينصرف كل ذي عملٍ إلى عمله ، وأثناء عمل الموظف يكون منكبّاً على واجباته ، ليس بجانبه فتيات ينصرف إلى الحديـث معهن ، وإشباع النظر منهـن ، كما ليـس هنــاك مـن مجال لـديـه لقــراءة الصحـف والمجلات، ولا لتناول الشاي والمرطبات ، فالوقت وقت عملٍ ، والمرء مسؤول عـن عمله وعـن وقته في دنيـاه أمام رئيسـه وأمام

المجتمع ، وفي أُخراه أمام الله ، عزّ وجلّ ، وبذا يكون المردود حسناً والإنتاج جيداً .

وتبني الأسرة المنزل الذي يتلاءم مع حياتها ، فالباحة داخلية ، والنوافذ مُشرفة عليها فتتعرض للشمس والهواء ، ويكون المنزل صحياً ، ولا يسدّ جار الهواء والنور عن جاره . وتُحجب الأسرة داخل البيت في باحته ، ويمنع التلصص ، ونظرة الريبة ، ويُستر الجار عن جاره ، ويكتفي كل إنسانٍ بما قسم له من حياةٍ زوجيةٍ ، فلا يرى أجمل ، ولا أفضل ، ولا أحلى ممن في بيته حيث لا يرى غيرها ، ولا تتوق نفسه لسواها فتتلاءم الأسرة ، وتنسجم الحياة الزوجية . ويُحتّم الإسلام على السكان عيادة المريض ، ومواساة المنكوب ، والزيارة بالأعياد والمناسبات ، وتفقّد الفقراء ، ومساعدة المحتاجين ، وصلة الرحم ، واللقاء في المساجد . وبحث قضايا المسلمين على المنابر ، وبذلك يتكون المجتمع الفاضل ، وهناك اتفاق بالنظرة إلى رجال العلم ، ومفهوم الإنسان الصالح ، والعوامل التي ترفع من قيمته وقدره ، وكذلك بالنسبة إلى الأخلاق ومفهومها

وفلسفتها .

هـذه الصفـات الاجتماعيــة عـامـة بين المسلمين ، فحيثما ارتحلـت في بلادهـم وجـدتها ، وعرفـت أنـك في بيئةٍ واحـدةٍ ، وتشعـر أنها ميزة لهم ، وأنهم أمـة واحـدة . وأحسّ المستعمـرون النصـارى بهذا فعملــوا على تغييرهـا في سبيـل تفتيــت الأمـة والقضاء على وحدتها ، فسعوا إلى خروج المرأة من مقرها الأصلي الذي خُلقـت له ، وتكليفهـا بأعمالٍ ليسـت من طبيعتهـا تحت شعار زيـادة الإنتاج والإفادة مـن الطاقات ، وأخـذت تعود إلى بيتها متعبـةً متأفّفـة من العمـل فتجد رجلهـا كذلـك قد رجـع متـذمّراً مـن شغله فيبـدأ النفـور وليس لطـرفٍ أن يُخفّف عـن الطرف الآخـر فكلاهما متعـب ، وكلاهما قـد وجد أثنـاء عمله الجنس الآخـر بتصنّعٍ وتجمّلٍ ، وتبرّج وتحلّي حتى لم يعـد يرى في منزله ما يشدّه إلى زوجه ، ولا يشعر الأبناء بحنان الآباء إذ هما في تعبٍ ، وحـالةٍ مـن التوتر ، كما لا يحسّ الآبـاء بعاطفـة البنوة ، فتتفكـك الأسرة ، ويسير كل في الاتجاه الـذي يراه ، ويحدث مـا وقع في البلدان النصرانية التي تدعي المدنية والحضارة .

وأخذت عادة السهر إلى ما بعد منتصف الليل على وسائل الإعلام التي تبقى تبثّ بتوجيهٍ من الأعوان حسبما يريده السادة، فلا يصحو الناس على تأدية فريضة الفجر ، وهذا هدف من أهداف سدنة النصرانية ، ويذهب المرء إلى عمله ، ولم يكفه نومه، فيكون طيلة نهاره خاملاً ، يريد أن يتسلّى بما يجد ، ليقضي ساعات شغله ، حيث يصعب عليه العمل ، ويكون مردوده ضعيفاً ، وإنتاجه ضئيلاً ، وتكون عنده عقدة النقص ، عندما يُقارن ذلك بما ينتجه غيره ، ويرى هناك الحضارة والإنتاج ، وهنا التخلّف والخمول ، وهذا هدف أيضاً من أهداف سدنة النصرانية ، وأعداء الإسلام .

ومن أجل تفكك الأسرة المسلمة أصبح نظام الأبنية مشابهاً لمساكن الأسر ذي المناهج المادية ، حيث تُشرف المنازل بعضها على بعضٍ ، ويرى أفراد هذه سكان تلك ، ويكون ما لا يحمد عقباه .

وقلّ ارتياد المساجد ، وتعارف المسلمين بعضهم على بعضٍ، وأصبح خطباء المساجد لا يتناولون ما يجب عليهم من

تعريف المصلين بأوضاع إخوانهم ومشكلاتهم ، جهلاً منهم ، حيث يُختار نماذج معينة ، وتُبعد نماذج محددة عن القيام بهذه المهمة ، وتوجيهاً من أولي الأمر الذين يُريدون السير بخطٍ معينٍ.

وقلّت واجبات عيادة المرضى ، وصلة الأرحام ، وتفقّد الجوار ، والسؤال عن أولي الحاجة ، وبذا ضعف ترابط المجتمع الإسلامي ، وابتعد عن السمة التي تميّزه عن غيره ، وأصبح يفقد هويته تدريجياً .

وربما كانت الثقافة إحدى جوانب الحياة الاجتماعية ، حيث يُدرّس في الأمصار الإسلامية جميعها بدء الدعوة الإسلامية ثم انتشارها ، والفتوحات ، وقادة الجيوش ، وينظر إليهم نظرة التقدير والإعجاب ، وعدّهم قدوةً صالحةً . كما تُدرّس الأمصار الإسلامية في الجغرافيا . وتعلّم اللغة العربية ، وإن كانت تعد ثانويةً في بعض الأمصار ، ولابدّ لكل طالبٍ مسلم من أن يعرف شيئاً عنها ، لأنها لغة القرآن الكريم ، والحديث النبوي ، وهما مصدرا التشريع ، كما أنها لغة العبادة . وتعدّ الكتابة قوية

بمقـدار الاستشهاد فيهـا بـآياتٍ مـن كتـاب الله ، وبالحديـث النبوي ، وعبارات الحكمة ، والشعر العربي ، وكلاهما معروف في أكثر الأمصـار . كما أن التربية الإسـلامية واحـدة في تدريسهـا لدى المسلمين جميعاً .

وعنـدما تسلّـط المستعمـرون النصـارى على ديار الإسـلام عملوا على التركيز على التاريخ الجاهلي ، وتاريخ أوربا الحديث ـ كما مـر معنا ـــ، ووجّهوا العنايـة على تدريـس الدول الكبرى (أوربا والولايات المتحدة الأمريكية) ، وإبعاد اللغة العربية عن الأمصار غير العربية ، وتغيير الحرف العربي الذي كان شائعاً في كثير من الأمصار غير العربية ، واستعمال الحرف اللاتيني مكانه ـ كما ذكرنـا ـ والعمل على إضعاف اللغـة العربية بل إمـاتتها في مواطنهـا . وبهذا أخذت تنفصم عـرا الأخوة الإسلاميـة ، وتقوم مكانها أواصر واهية لا تنبع من العقيدة ، وإنما يُركّز عليها كنوعٍ من العواطف .

الفصل الثالث
الضياع الذاتي

لما كانت الدول النصرانية هي المتغلّبة على الدول الإسلامية، وهي الأقوى عسكرياً ، والمتفوّقة علمياً ، والمتطوّرة في البحوث التجريبية لذا استطاعت أن تُؤثّر بمخططاتها ، وأن تُحقّق بعض أهدافها حيث أخذ المسلمون الذين في قلوبهم مرض يشعرون بالهزيمة النفسية أمام الدول النصرانية ، ويحسّون بعقدة الصغار أمام أعدائهم كنوع من تأثير الغالب على المغلوب ، لذا أخذ ضعفاء المسلمين يُحاكون خصومهم لغةً ، ويُقلّدونهم في منهج حياتهم ، ويسيرون على خُطاهم شبراً بشبرٍ .

ولما كانت الدول النصرانية الكبرى هي المهيمنة على باقي دول العالم ، وهي الموجهة للأمم الأخرى تحت أسماء متعددةً تارةً باسم هيئة الأمم المتحدة ، وأخرى باسم النظام الدولي ، وثالثة تحت عنوان مجلس الأمن ، والمجتمع الدولي ، لذا فهي

تُنفّذ مشروعاتها قهراً تحت هذه العناوين ، وغصباً للدول التي تحاول عدم الانصياع ، أو ترفض الخضوع لهذه الدول النصرانية الكبرى . وأخذت الدول الكبرى تضغط على من تريد من الدول بادعاءاتٍ ومُغالطاتٍ معينةٍ حتى تُجبر من تسوّل له نفسه على التمرّد وعدم الخنوع . وتبعد مسؤولين عن السلطة ، وتُسلّم من تريد صولجان الحكم ، وبهذا خضع كل ضعيفٍ ، وخنع كل صاحب مصلحةٍ ، وسار في فلك الدول الكبرى معلناً الطاعة ، والرضا عن هذا التيار والعمل على تحقيق مشروعات النصرانية ، وتنفيذ مخططاتها .

وأحسّ عقلاء المسلمين بما يجري على الساحة فازدادوا ألماً وحسرةً ، ولكن لايستطيعون عمل شيءٍ إذ يُمارس عليهم الضغط من كل جهةٍ ، ويُشرع عليهم السيف كل حينٍ ، فأخذوا ينظرون وعيونهم تقطر دماً ، وهم يرون أمتهم تفقد هويتها ، وتضيع شخصيتها ومع هذا فالادعاءات كثيرة ، والتشدّقات لا تنقطع .

ولما أصبح للدول النصرانية الكبرى أعوان في ديار الإسلام، وبيدهم زمام الأمر ، وأخذوا على أنفسهم السير في فلك أصحاب القوة ، وعلى نهجهم ، وقبول التوجيه ، وإذا أخلّوا بشيءٍ من هذا استبدلوا ، وقام بالأمر غيرهم .

ولما كان للأعوان بطائن ، ومصالحهم مرتبطة بعضها مع بعضٍ ، كما لأصحاب المنافع والشهوات والمترفين، المصالح نفسها لذا كان التعاون بينهم جميعاً ، والسير في الخط ذاته ، وهو مخالف لخط سير الأمة المسلمة، ومن هنا بدأت تفقد شخصيتها، وتنسى هويتها، فأصحاب الأمر، والتوجيه، والمال، والقيادة ، والأهواء يسيرون في خطٍ معاكسٍ لخط الأمة ، والرعية لاتملك من الأمر شيئاً ، وينتابها الجهل ، وتقع في الشكوك والحيرة ، وتعيش بين المغالطات ، وتُقيم بين أصحاب المصالح والمنتفعين ، وهذا ما ساعد على ضياع الأمة ، ومع ذلك فهناك أمور ذاتية تساهم في ضياع الفرد ، ثم المجتمع ، وبالتالي الأمة ، ومن هذه الأمور :

أ ـ النكبات :

لعل من أهم النكبات التي حلّت بالمسلمين بعد سيطرة المستعمرين النصارى على ديارهم هي تجزئة بلادهم على أسسٍ قوميةٍ مما سبّب تنافراً بين شعوبها ، وخلافاً بين حكوماتها لايكاد ينتهي . ولعلّ من المصائب التي نزلت بالمسلمين وضع بعض الشعوب الإسلامية تحت سيطرة شعوبٍ أخرى مع سيادة العصبية القومية ، وهذا ما أدى إلى خلافاتٍ لاتنقطع ، وهذا ما خطّط له الأعداء ، فحدثت عداوة بين شعبين مسلمين، وبقيت على مدى الأيام ، والشعب الضعيف أو المستضعف لم ينظر إلى هذا الخلاف على أنه من صنع الغزاة النصارى الذين تغلّبوا على المسلمين فلعبوا فيهم وبديارهم ، ولا على أن هذا العداء من نتائج العصبيات القومية النتنة المتضاربة بعضها مع بعضٍ بل نظروا إلى ذلك أنه ظلم شعبٍ مسلم فحملوا الحقد والكراهية على أنه لجنسيةٍ معينةٍ فبرزت شعوبية من جديدٍ ، وأخذت مظهر الإسلام ، والإسلام بريء من هذا بل إن الشعب الغالب بريء من هذا فهو مغلوب على أمره ويتحكّم به طغاة . ووقع في

هـذا الشرك من كنـا نتصور أنهم عقـلاء ، وأنهم يحملون الفكـر الإسلامـي غير أنه طـاش صوابهم ، وذهـب فكرهـم وساروا في طريق التيه ، ودرب الضياع إذ أضاعوا أنفسهم ، وأضاعوا بني قومهـم الذيـن كانـوا يظنّون بهم خيراً ، ولكـن أوردوهم سبيـل التهلكة .

ولعل أبـرز هذه النكبات مـا حلّ بالشعـب الكردي ، وإن كان مثلها كثير ــ مع الأسف ـ . منذ أن دخل الأكـراد بالإسلام عاشـوا جزءاً من المجتمع الإسـلامي ، وتعلّموا اللغة العـربية ، وإن بقوا يتحـدّثون فيما بينهـم بلغتهم الخاصـة التي بقيـت لغةً سماعيةً غير مكتوبـةٍ ، واستمرّ ذلك على مدار التـاريخ ، شعب من الشعوب الإسلامية يعيش ضمن مجتمعٍ لا يحسّ بأي فارقٍ بعيدٍ عنه مادام يعتقد عقيدته ، ويُمارس عاداتٍ وتقاليد تنبع من تلـك العقيـدة ، فلما انتهـت الحرب العـا لميـة الأولى ، وأُلغيـت الخلافة ، وتقطّعت أوصال الأمة ، وقامت دول هشّة على أساس عصبياتٍ نتنـةٍ وجد الأكـراد أنفسهم فيهـا أقليـات مُـوزّعة بين ثـلاث دولٍ قـوميـةٍ ، وبـدأ ضغط القـوم الأكثـريـة على القـوم

الأقليـة، وبـدأت المآسي تتـوالى ، وُزّع الأكـراد بين العـرب في العـراق ، والترك في تركيـا ، والفـرس في إيران وزادت النـوازل ، وخاصـةً عندما سلّط الله بعـض الطغاة على سكان بعـض هذه الدول فنال الأكـراد جور ، وظلم ، وجرائم تقشعـر لها الأبدان ، وكان على الملتزمين مـن الأكراد ، الواعين لدينهـم أن يدعوا إلى تحكيم الإسـلام ، فهو المؤاخي بين أبنـائه ، والعدل في أحكـامه لكن بعضهم قد طاش صوابه ــ وكنا نظن بهم خيراً ـ وبدلاً من الدعوة إلى الحق أخذوا يدعون بـدعوى الجاهلية ، وقد أصابتهم لمسة منهـا فصارت القـومية عنـدهم فكـراً ، فتخلّوا عـن اللغة العـربية في بيـوتهم ، وعـن الحرف العـربي في كتابتهـم ، وعـدّوا التعريب طعنـة في الإسلام ، وافتخروا برجال من أهـل الباطل ، والظلم ،والجاهلية لمجرد سكناهم في منطقـة الجبال إذ عـدّوهم من قومهم أمثال بختنصر ، وأبي مسلم الخراساني ، ووصل الأمر ببعضهم إلى أن أخذ يعمل إلى إقامة دولـة كفرٍ في مناطق قومه ، فآلمهـم الانتماء إلى ذلك القـوم ، ورأوا أن تكون عبـادة كل قـومٍ بلغته ، وهكذا طعنات بالإسلام من غير علمٍ ، وهجوم عليه عن

جهلٍ رغم أنهم يدرسون تفسير كتاب الله بجامعةٍ إسلاميةٍ ، وهكذا أضلّتهم العصبية القومية وكانوا بالأمس من أعدائها ، وأضلّوا قومهم وما دروا، ويظنّون بعد ذلك أنهم يُحسنون صنعاً، وبذا زادوا في ضياع الأمة، وعملوا على فقدان شخصيتهم وشخصياتها على حين يجب أن يكونوا من أبنائها الصالحين الذين يبنون ولا يهدمون، ولكن العصبية تُعمي عن الهدى، وتُصمّ عن سماع كلمات الحق .

ب ـ التزلّف :

اعتاد الطغاة أن يختاروا رجالاً يتكئون عليهم في تسيير شؤون سلطانهم ، ويُزيّنون للناس أعمالهم ، ويُضفون عليهم حسن السمعة بما يثنون ، وما يُدبّجون من مقالات الإطراء والمديح، ويحصلون مقابل ذلك على مناصب ومنافع ، وكما ينالون المغانم فلابدّ أن يتحملوا المغارم إن حدث ما يكرهون . لذا كان الاختيار يقع على أصحاب المكانة مثل هامان ، أو الأثرياء أمثال قارون . وربما وجدت نماذج تبقى خلف الستار إذ لها مهماتها التي لا تسمح لها بالظهور لخسّتها . وكان الطغاة

على مدار التاريخ يركّـزون على الكهنة ، أو ضعاف النفوس من رجال الديـن أو مشايخ السوء ليُعطوا للطاغيـة صفة الشرعية ، ولأعمالـه وتصرّفاتـه جـانب الحق ، ليقبـل النـاس منهم ذلـك مادامت تلك الأعمال لاتُخالف عقيدة الشعب .

وجـرت العادة أن يُلـوّح الطغـاة لمن يقـع عليهم الاختيـار ببعض الإغراءات مـن منصبٍ، أو مالٍ ، أو شهوةٍ كـل حسب مكانته ، أو إمكـاناته ، أو حسب الدور الـذي يجب أن يُؤدّيه ، ويرفض الاتقيـاء هذا أصلاً ويأبـونه ، بل يعدّون الإقـدام عليه خيانةً ، وربما يتمنّع بعضهم ليحصل على امتيازاتٍ أفضل ، أو إغراءات أكثر . وقد يهرول بعضهم نحو الهدف مجرد أن يُلوّح له به ، وذلك حسـب نفسيته ، وحسب إيمانه ، وبما يظهـر به أمام الناس . وربما يُسرع أحـدهم فيكشف عـن مساوئه كلهـا دفعةً واحدةً ، فيتخلّى عن كل مكرمةٍ كـان يدّعيها ، وعن المبدأ الذي كان يدعو له ، ويُكثر من التزلّف حتى يظنّ نفسه صادقاً ، ومن النفاق حتـى يحسب أن مـا يفعله صحيحـاً . يجعل مـن رؤوس الكفر وزعماء الفـرق الضالة أئمـة هدىً . ويـرى في دعاة الحق

خوارج يُقام عليهـم حدّ الحرابة مادامـوا يُخالفون إمام الهدى في نظره . وتعمى عيناه عن المظالم فلا يرى إلا المبررات الفارغة لها، وتصمّ أذناه عن كل ما يجري من مفاسد تضجّ بها الدنيا ، ويـراها ضئيلةً لا تستحق الوقوف عندها ، ويعتقد أن المحاسن تُغطيها وتُذهبها .

ويعتقد أن دعاة الحق يجب ألا يُطالبوا بالحكم ليحكموا بما أنـزل الله ، فـإن الحكـم يجب أن يكـون مقصـوراً على الطغـاة ، محصوراً بالظالمين إذ سبق أن وُسّد لهم الأمر . والصالح يجب أن يبقـى بعيــداً ، وتقتصر الـدعــوة على الضعفـاء ، وعلى أمــور العبادات، والابتعاد كل الابتعـاد عن التفكير بتطبيق شرع الله ، والحكـم بما أنـزل . ويجد مبرراً لكـل طـاغيـة في عـدم تطبيقـه الشريعـة ، وأخيراً يتكلم ــ مـع الأسف ــ عـن الجهاد وكيفيـة ممارسته، ويـورد المغالطات والأضاليل . ويـرى كل شيء مخالفاً للواقع مادامت له كلمة تسمع ـ حسبما يرى ـ ، وحديث يُذاع ، ولقاء مع زبانية .

وربما تحدث بين المتزلفين مسابقـات لاحتلال المكان الأول فتكون المزاودات في كلمات النفاق ، والمديح المبـالغ فيه فتعطى صفات الصدّيق والفاروق للطغاة، والموالين للنصارى واليهود .

إن هـذا وأمثالـه ليضلّون النـاس فتقع الأمـة في تيهٍ ، ومـع الزمـن تفقد هـويتها ، وتضيع شخصيتها ، مادام مـن يظنّ بهم العلم يُنافقون للطغاة ، ويتكلّمـون بالمغالطات . ويحسبون أنهم على شيء ومـا هـم ـ والله ـ بشيء، فـإذا انتهـى دورهـم واستهلكوا أُلقوا على الدمن، ولكن بعد أن ضلّوا، وأضلّوا، وسعوا في إضاعة العامة، والكذب على الرعية .

الجهالة :

يوجد بعـض الأفراد يريدون الرفعة ، وهـم ليسوا أهلاً لها ، فيُفتّشون على طريقةٍ للظهور ، ولو لم تكن مشروعةً ، وتلتوي بهم الطرق ، ويترنحّـون في السبل يبحثـون عن وسيلـةٍ ، ويقودهـم أحياناً فكرهم غير السوي إلى زقـاقٍ مظلـمٍ مسدودٍ ليُقادوا من هناك إلى المكـان المعدّ لهم مـن قبل الأعـداء ، أو ليكونـوا مطيةً يُنفّـذ الخصـوم مخططـاتهم عـن طـريقهـم ، وهـم لا يـدرون ،

لجهالتهـم ، والجهالـة هي ضيـق في ساحـة الرؤيـة ، وصغر في العقل ، وسطحية في الفكر .

قد يجد صاحب الجهـالة زلّـةً لعالم ، أو هفـوةً لمفكر ، أو هكذا يظنّ حيث لم يستطع إدراك مـا كتبه ذلك العالم ، أو خطّة ذاك المفكر ، وعلى كلّ فليس هناك إنسان معصوم بعد أنبياء الله ورسله ، فيعدّ صـاحب الجهالة تلك الزلّـة كنزاً عظيماً يستغلّه ، وربما يكـون قـد وُجّـه إليه ، ويعتقـد أن انتقـاده سيرفعـه ، إلى مستوى ذلـك العالم فيكتـب ، ويُهاجم ، ويتجنّـى ، ويُمّهد لـه الأعداء الـدرب ، ويتبنّون ما كتـب ، ويُوزّعـونه ، ويرفعـون من شـأنه لينـالوا مـا يبغون ، ويكـون قد سقـط في الفخ إذ ضـلّ ، وأضلّ . لقد أضـلّ نفسه ، وأضلّ من تبعه ، وخـدم أعداء الأمة بما سبّـب مـن ضيـاع . وربما سعى الأعـداء عـن طـريـق غيره ليُدافعوا عمن هاجم ، ويردّوا على ما دوّن ليقع الشقاق بين أبناء الأمة ، ولتذهب ريح المسلمين .

لقـد خـالف كثيرون ابـن تيميـة ،وهـاجمـوه في حيـاتـه ، وبعد مماته ، ولكنهم خسروا ، وضاع جهدهم وفكـرهم ، وبقي

ابن تيمية ـ رحمه الله ـ إمـاماً علماً . وتصدّى كثيرون للهجوم على سيد قطب في حياته وبعد مماته في سبيل شهرتهم ، ولكنهم باءوا بالخسران ، وكانـوا مطيةً للخصم ، وزال فكرهم وظلـوا أقزاماً ، وبقي سيـد قطب ـ رحمه الله ـ عمـلاقاً . ويسوّي أعـوان الدول النصرانية الطريق لهؤلاء الذين يريدون الشهرة ليكتبوا ، ويخطّوا، وليفـرّقـوا الأمـة ، وليُوقعـوا الصراع بين الملتـزمين ، بين مُـؤيّـدٍ ومخالفٍ .

الفوضى :

يُغري بعـض الناس المنصـب فيحسبون أنهم قـد ارتفعوا ، وتُبطر النعمة آخرين فيحسبون أن مكـانتهم قد علت ، ويُطمع ضعـف النظـام أناسـاً فيرغبـون أن يـرعـوا سائمين لا يُبـالـون بسواهم، وما أكثر حـوادث هؤلاء في المجتمع ، غير أننا نقتصر على نقطةٍ واحدةٍ هي نظام المرور ، فيظـنّ أصحاب المناصب أن تعليمات المرور لا تطالهم ، ويُبدي أصحاب النعمة عدم اهتمامٍ إذ يستطيعون شراء السيارة في كل حينٍ ، ثم تبـديلها كل وقتٍ ، ويُظهر الشطّار مهارةً في المخالفات ظناً منهم أن المرور في غفلةٍ

عنهم ، أو أنهم يستطيعون التحايل في المخالفات ، وإن الذي لايوجد لديه رادع من نفسه لابدّ من له من نظامٍ رادعٍ .

وهكذا تكثر التجاوزات ، وتذهب الضحايا ، ويضطر رجال المرور أن يغضّوا النظر ، فتزيد المخالفات ، ويرى الإنسان الغريب في الشعب تخلّفاً ، وربما عزا السبب إلى المفاهيم والمبادىء ، وينظر أفراد الشعب نفسه إلى مجتمعهم نظرة الازدراء عندما يقارنونه مع المجتمعات الأخرى التي يسود فيها النظام ، فتتولّد لديهم عقدة النقص ، ومع زيادة الفوضى ، والشعور بالنقص ، تحسّ الأمة بالضياع ، وتبدأ شخصيتها بالضعف .

الإشغال واللهو :

في الوقت الذي تنصبّ فيه النكبات على المسلمين في مختلف أمصارهم ومواطنهم انصباباً ، وتتوالى عليهم تباعاً ، حتى يضجّ بها العالم ، ويعرف أخبارها القاصي والداني إلا المسلمين فلا يسمعون إلا أطرافاً من الأخبار عنها ، ولا يعرفون

مـن تفـاصيلها شيئـاً ، ذلـك أنـه يُخطـط لهم هذا كـي لا تُثـار العاطفة الإسلامية ولا تتحرّك حمية العقيدة ، ويُنادى إلى الجهاد، وعندهـا تكون الطامة بـالنسبة إلى الدول الصليبية التـي تُعادي الإسلام صراحةً ، وتعمل على دفن الروح المعنوية لدى أهله كي تتمكّن منهـم ، وتستطيع تنفيـذ مخططاتها بهم وبـديارهـم ، لذا فهي تعمـل على إشغالهم بتوافـه الأمور ، وتُحرّك مـن يعمل على إشغالهم .

في الـوقـت الذي تنـزل المصـائب على المسلمين في بعـض المنـاطـق تسمـع في الأمصـار الاحتفـالات ، والاستقبـالات ، وحفلات السمر ، والأيـام الوطنية ، والمناسبـات ، والمباريات ، والمسابقات ، والصيـاح ، والهتافات فيها ، وتصـدح الأغاني من وسـائل الإعلام ، والصـور الخليعة في المجـلات و... وكأننـا لم نسمـع ما يصيـب إخـوانـنـا المسلمين ، ولا ندري مـاذا يجري ، الواقع أنه يُراد لنا ألا نسمع ، ويُطلب منا ألا نحسّ ، لذا يحدث هذا ، ويقـع هذا ، فهـو مخطط مرسـوم ، وعمل مقصـود . إنه لم يحدث عرس ومـأتم في بيـتٍ واحدٍ على مـدار التاريـخ . إنه لا

يصح أبداً أن تكون المآسي ، والأحزان عند إخواننا وعندنا الأفراح والاحتفالات .

إن الأعداء يعرفون الروابط التي تربط المسلمين بعضهم إلى بعضٍ ، ويعلمون نتائج رفع راية الجهاد لذا فهم حريصون على إشغالنا ، ويُكلّفون أعوانهم لصرفنا عن أهدافنا باللعب والمباريات، واللهو والاحتفالات حتى تضيع الأمة فلا تدري أتمرّ بمرحلة أفراحٍ أم تحلّ بها المصائب والأحزان . فالمسلمون في لهوهم ، وفي غفلةٍ سادرون ، والضربات تتوالى على إخوانهم من مذابح ، وإبادةٍ ، ووحشيةٍ ، واغتصاب . ويشعر المسلمون الملتزمون والذين على درجة من الوعي بالأسى والألم على هذا الضياع نتيجة الإشغال بتوافه الأمور ، واللهو بالسفاسف ، وترك بقية الأمة تُعاني الآلام ، والناس في غفلةٍ لايدرون .

الغفلة والتبعية :

لقد أصاب الذلّ الشعوب الإسلامية نتيجة الضغط والضربات المتوالية من الداخل ومن الخارج ، وأصابها أيضاً

الفقر ، وخيّم عليها الجهل وخاصةً بقضايا المسلمين والأمور العامة بسبب التعتيم عليها ، و إهمالها ، وعدم الالتفات إليها ، وعاش المجتمع في غفلةٍ ، ومن بقي على نباهةٍ ووعي سُحق .

لقد انصرف الناس إلى تأمين شؤون حياتهم ، والقوي منهم الذي يستطيع تأمينها ، فهم يلهثون وراءها لايدرون على شيءٍ ، وكانت حياتهم في غفلةٍ وشغل الشعب بما وُجّه إليه من اللهو والفساد فعاش في غفلةٍ ، لايصحو ولا يُفكّر . وشغل العلماء بالرّد على الأسئلة ، والمناقشات ، وتبرير أعمال ، والبرقيات ، وربما بعضهم بالسعي للظهور والمنافسة على المراكز ، وتركوا كل ما عدا ذلك حتى غدوا في المرحلة الأخيرة لايعرفون ما يحيط بهم، ولا ما يُخطّط لهم ، ومع ذلك يدّعون الاجتهاد ، وتقديم الآراء الاجتهادية التي يرضى عنها كل مسؤول ، وعاشوا في غفلةٍ . وكذا يفعل الإهمال في دوائر الدولة والمؤسسات إذ يُولّد عقد النقص والشعور بالتخلّف .

ونتيجة الحاجة عند الكثيرين ، والرغبة بالوصول عند بعضهم يكثر التزلّف ، ويُغفل عن كل أمرٍ سواه ، ولايكون

الحديث إلا عن التصرّف ، والتحايل ، وأسلوب التقرّب .

كما أن المناهج تلعب دوراً كبيراً في هذا الموضوع إذ تُهمل قضايا المسلمين ، وأوضاعهم ، وواجب دعمهم ، والوسائل الواجبة على المسلمين ، وموضوع الأمة ، وعوامل الارتباط ، وتعاليم الإسلام الصحيحة .

وهذه كلها عوامل دعت إلى ضياع الهوية الإسلامية ، وتفتيت الأمة ، وساعدت على نجاح مخططات الأعداء ، وهذه العوامل هي من الأمة نفسها قبل أن تكون من قبل خصومها . فالنفسية التي تستعلي بإيمانها ترفض مثل هذه المفاهيم ، وتأبى أن تكون إمّعةً تسير مع القطيع بل تكون أداة بناءٍ وإصلاح . وفي الأمة خير كثير ـ إن شاء الله ـ غير أن الضياع والتيه قد سدّا نوافذ التفكير عند كثيرين فأصبحوا يتبعون كل مُدّعٍ ، وبرز المدّعون ، وأخذ أول الفراعنة الجدد يدّعي أنه سيعمل بإمكاناته كلها على استعادة القدس وما حولها من الأرض المباركة ، فخدع الناس ، وساروا وراءه ، وأظهر خلافه لليهود والدول الكبرى المؤيّدة لهم ، وفي الوقت نفسه أعلنت الدول مخالفتها

والهجوم عليه من باب الدعايـة له ، فارتفعت أسهمه ، وصدق الرعاع ذلك ، وتبعوه .وزاد طغيانـه ، ثم انكشف القناع ، وظهر أنـه من غير أبنـاء الأمـة ، ثم أوكـل القضيـة إلى رجلٍ مثلـه في العقيدة ، فـأنهى الموضوع لمصلحـة إخوانه المعتـدين . وهـذا ما أوقع الكثيرين في الحيرة ، وكيف يعرفون الصدق من الادعاء ؟.

الخاتمة

في هذه الأيّام التي يسعى فيها الأعداء لإضاعة الشخصية المسلمة ، وإفقادها هويتها ، وإماتة الأمة ، ويتخذون من أعوانهم مطيةً لتحقيق ذلك ، ومن المتفرنجين الذين قبلوا الحياة على المنهج الصليبي أداةً لتنفيذ مخططاتهم ، وتتداعى علينا أمم الأرض ، كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها ، في هذا الوقت ذاته على المسلم المخلص الصادق ، الذي يعيش قضية أمته أن يُؤدّي دوره ، وأن يقوم بما يأتي :

١ ـ العمل على تثبيت العقيدة لدى الإخوة والأصدقاء .

٢ ـ قراءة السيرة والعهد الراشدي قراءةً واعيةً ومحاولة الإفادة من الدروس والعبر .

٣ ـ الاطلاع على ما يجري على الساحة الدولية ، وما يوضع من مخططاتٍ ومشروعاتٍ لمحاربة الإسلام والمسلمين ، ومحاولة فهم الأحداث العالمية ، وتفسيرها تفسيراً واقعياً .

٤ ـ محاولة الاهتمام باللغة العربية ، والحديث بها ، وعدم استعمال الكلمات الأجنبية التي أصبحت تشيع في المجتمع ، والتي غدا كثير من الناس يستعملها .

٥ ـ عدم محاكاة العمال والمستخدمين في لكنتهم الأعجمية، والعمل على تعليمهم ، وذلك أفضل من محاكاتهم .

٦ ـ عدم الكتابة على اللافتات والأوراق الرسمية باللغة الأجنبية ، والاكتفاء باللغة العربية فقط .

٧ ـ نصح الآخرين للتقيّد بما ذكرنا سابقاً ، وتبيان خطر الفرنجة على اللغة وعلى الأمة .

٨ ـ العمل على توعية من يلتقي بهم من المسلمين وبيان ما يحدق بهم من أخطار .

٩ ـ مفاصلة المتفرنجين شعورياً مع بقاء الصلة معهم لنصحهم ، ودعوتهم ، والعمل على هدايتهم .

١٠ ـ العمل على أن يكون أسوةً في الأدب ، والأخلاق ،

والعلم ، والهدوء ، والمعاملة وحسن الصلة مع أفراد المجتمع جميعاً.

١١ ــ الابتعـاد عـن الجشـع ، وعـن البخـل ، والفُجـر في الخصومة ، وكل ما يسقط العدالة أو يُسيء إلى السمعة .

١٢ ـ التقيد بالنظام ومحاولة عدم ارتكاب أي مخالفة .

١٣ ـ الإعـداد النفسي والاستعداد المادي لمقاومـة مخططات الأعداء ، والعمل على النهضة بالأمة .

وإذا تقيّد المسلم بهذا كـان محطّ أنظار الآخرين ، ومـوضع ثقتهـم ومحبتهم ، ويعملـون على تقليده والإفـادة منه ، ويكـون التـوجّه نحـو الصلاح ، ولقـد انتشر الإسـلام في مواطـن كثيرة وخاصةً في جنوب شرقي آسيا بالتأثر بأخلاق التجار المسلمين ، وحسن معاملتهم .

الفهرس